العذراء في حياتنا

طبعة أولى

٢٠٠٧

*

منشورات المكتبة البولسية

جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب. ١٢٥

هاتف: ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦

بيروت – شارع لبنان – هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣

زحلة – شارع سيّدة النجاة – مقابل مطرانيّة الروم الكاثوليك – تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧

سلسلة
صفحات روحيّة
٣٦

العذراء في حياتنا

تأليف
المطران تونينو بلّو

اقتباس
أَديب مصلح

٢٠٠٧

هذا الكتيّب مقتبس عن كتابٍ من تأليف المطران الإيطاليّ

Tonino BELLO

في ترجمته الفرنسيّة بعنوان:

MARIE, FEMME DE NOS JOURS

MEDIASPAUL, PARIS, 1998

تمهيد

لقد وصف المجمع الفاتيكانيّ الثاني السيّدة العذراء بأنّها عضوٌ في الكنيسة فائق الرفعة، وفريدٌ فرادةً مطلقةً، وبأنّها النموذج الأمثل للإيمان والمحبّة. وألمح المجمع إلى أنّها قد ساقت، على الأرض، حياةً شبيهةً بحياة كلّ إنسانٍ. وفي هذا السياق، جاء هذا الكتيّب دعوةً إلى تأمّل مريم بصفتها شاهدةً على الإيمان، وداعمةً له، في كلّ مناحي الحياة اليوميّة، إيمانٍ غالباً ما يصطدم بشتّى ضروب أوهان بشريّتنا الراهنة.

هذا الكتيّب هو، في الواقع، متحفٌ مصغّرٌ للعذراء مريم، تتعاقب على صفحاته لوحاتٌ أخّاذةٌ لها، في مختلف مراحل الحياة وظروفها، لوحاتٌ تتنافس روعةً وإيحاءً، دُوّنت بلغةٍ بسيطةٍ تقرن الواقعيّة بالشعر، وتقدّم لنا صورة «عذراء قوامها الرقّة، والشفافيّة اللاهوتيّة، تحلّق صوفيًّا فوق نفوسنا، وتندمج حميميّاً في نسيج الزمن، وقي تعاقب الأيّام.....».

كاتب هذه الصفحات هو المطران الإيطاليّ «تونينو بلّو» (١٩٣٥–١٩٩٣) الذي ناضل، بجرأةٍ، في سبيل السلام والعدل، ووقف بعزيمةٍ وجدوى، إلى جانب الفقراء والمهمّشين، وكان له، في إيطاليا وفي العالم، إشعاعٌ واسعٌ.

١ – مريم، امرأة أيّامنا

إنّ العذراء مريم خير مثالٍ للحياة الروحيّة والرسوليّة. فهي، فيما كانت تخوض على الأرض حياةً شبيهةً بحياة كلٍّ منّا، حافلةً بالاهتمامات والمهمّات اليوميّة، كانت، دائمًا، على اتّحادٍ حميمٍ بابنها، ومساهِمةً مساهَمةً فريدةً في عمله الخلاصيّ.

كانت تحيا على الأرض، لا في النجوم. لم تكن أفكارها أثيريّةً، وكانت دمغة الواقع الملموس تطبع أعمالها. صحيحٌ أنّ دعوتها الأولى كانت التأمّل، ولكنّها لم تُعْفَ من وجع القدَمين الراسختين على الحضيض.

كانت تحيا مثل جميع جاراتها، وتضطلع بمثل أعمالهنّ: تمتاح الماء، وتطحن الحنطة، وتخبز، وتطهو، وتنظّف، وترفو الثياب، وتلتقط من الحقول ما أهمله الحصّادون، وتأوي مساءً إلى الفراش متعبةً.

رتابة اهتماماتنا اليوميّة ووضاعتها، ليست، إذن، تافهةً وعديمة الشأن، كما قد يُخيّل إلينا، بل هي مباركةٌ ومقدَّسةٌ، كما كانت حياة مريم.

هي، أيضًا، كانت تقلق، عندما تتوالى أيّامٌ، ولا يطرق باب محترف يوسف زبونٌ واحدٌ. وهي، أيضًا، كانت تلتمس من أصحاب الأرزاق الذين تعرفهم توفير فرصة عملٍ في قطاف العنب والزيتون، لابنها الفتى يسوع.

هي، أيضًا، كانت تقتطع من أحد معاطف يوسف العتيقة، معطفًا لابنها، يستطيع الظهور به بين أترابه.

إنّ ما يجعل مريم قريبةً من قلوبنا، ومثالاً يُحتذى، هو أنّ تلك التي

كانت ملكة الملائكة، عاشت في بيتها بالناصرة، مثل كلِّ امرأةٍ فقيرةٍ، بين القدور والمغازل، بين مكبّات الخيوط، والكتب المقدّسة، بين الدموع والصلوات، في البساطة والقناعة، أفراحًا طاهرةً، ومراراتٍ لا قنوط فيها مضمِّخةً انسياب الساعات البطيء والرتيب بفرح الاستسلام التامّ، للمشيئة الإلهيّة.

٢ – مريم امرأةٌ صريحةٌ وطبيعيّة

بلا تمويهٍ ولا تزويقٍ زائفٍ. المباركة بين النساء لم يكن ممكنًا تمييزها عن سائر النساء، لو لم يكن اللّه قد ألبسها ثوبًا مصنوعًا من الشمس وتوّجها بالنجوم. إنّها امرأةٌ صادقةٌ لا تسترسل في الأقوال الباطلة، لا خجلاً، ولا خشية الخطأ، بل لأنّ الكلمة كان يقطنها، ويؤهّلها للتمييز بين الزائف والحقيقيّ. ولذلك كانت أقوالها، على اقتضابها، مثقلةً بالمعاني. كانت تستعيض بالصلاة عن الخطابات الطنّانة، والتصاريح الرنّانة، وبذلك تعلّمنا صومًا قوامه الإمساك عن الثرثرة، والاكتفاء بالقول المقتضب الذي لا ينطق إلاّ بالجوهريّ.

أنقذينا، يا عذراء، من سموم الكلام الباطل، وهبينا الشفافيّة، ولتفُحْ شفاهنا بعطر الصمت!

٣ – مريم امرأَة الانتظار

قيل إِنّ القداسة تُقاس بكثافة الانتظار. ووفق هذا المقياس، مريم هي أَقدس الخلائق لأَنَّ حياتها درجت على إِيقاع الانتظارات المطّردة.

عذراءَ، انتظرت وليدًا إِلهيًّا؛ وأُمًّا، انتظرت حلول الروح على أَبنائها الجدد. وبين هذين، انتظار «الساعة»، وانتظار فجر اليوم الثالث.

الانتظار هو، دائمًا، دليل رجاءٍ.

وانتظار العذراء هو حبٌّ بلا حدودٍ.

يا سيّدة الانتظار ،هبينا من زيت انتظارك، فمصابيحنا تنوس، وتكاد تنطفئ.

وأَعطينا نفس ساهرٍ، كي، معك، نوقظ الفجر.

وعندما يأتي الربّ، فليجدْ، بفضل تواطؤ أُمومتك، مصباحنا متوهّجًا في أَيدينا.

٤ – مريم، المرأة العاشقة

بئر حبّها البشريّ كانت خاليةً من الرواسب الوحليّة، لأنّ تلك البئر لم يكن لها قعرٌ. كانت رفيقاتها يعجبنَ من قرنها المدهش بين حبّها المطلق، المضطرم للّه، وحبّها الصادق والعميق لخطيبها يوسف.

علّمينا، يا عذراء، ألاّ نحرق بنيران حبٍّ مغرقٍ في المادّيّة، وخاوٍ من الروح، أجمل ما في الحياة.

لقّنينا فنّ الحبّ الصعب، وذكّرينا بأنّ الحبّ هو خروجٌ من الذات، وهو عطاءٌ لايقتضي مقابلاً، وهو كتمانٌ يتاخم الصمت، وهو ألمٌ ناجمٌ عن الانعتاق من حراشف الأنانيّة، وهو الرغبة في سعادة الآخر واحترام مصيره، والنأي عنه إن كان القرب منه عائقًا لرسالته.

٥ – مريم، المرأَة الحامل

حملها كان صدمةً لها، وكان نبأ حمل نسيبتها إليصابات فرصةً كي تبتعد إلى جبلٍ عالٍ، وتتأمّل، بعمقٍ وسكونٍ، ما حدث لها. وعقب ثلاثة أَشهر، حان لها أَن تعود إِلى الأرض الصلبة، إلى الواقع الراهن، واقعٍ كان عصيبًا. فكيف تواجه يوسف، وكيف تواجه معارفها، فيما السرّ الإِلهيّ كان يكبر في داخلها!

لم تُعْفَ مريم من اضطرابات الحمل وهواجسه، بل تركّزت فيها كلّ أَحلام الحوامل وهواجسهنّ. فيا أَيّتها الحامل التي منها يأتينا ماء الحياة المتفجّر من التلال الأَبديّة، ساعدينا على الترحيب بكلّ خليقةٍ قادمةٍ إِلى العالم، وكأَنّها عطيّةٌ إِلهيّةٌ.

وشكرًا لكِ، فقد حملت يسوع تسعة أَشهر، وتحملينا طيلة حياتنا. صوغينا على صورتك مثلما صُغْتِهِ، فأبواب السماء لن تُفتَح لنا إِلاّ بسبب شبهنا بك، ولو كان ضئيلاً.

٦ – مريم، المرأة المضياف

لقد تلقّت في قلبها، وفي جسدها، كلمة اللّه. وكانت له الأُمّ والتلميذة، كانت تلميذةً لأنّها أَصغت إلى الكلمة والتزمت بها، وأَخلت ذهنها من كلّ ما ليس أفكار اللّه. أَسكنت اللّه في صميم نفسها، ولكنّها لم تشعر بأَنّ حضوره فيها اقتحامٌ لها، بل إنّها وفّقت حياتها مع مقتضيات ضيفها.

ومثلما استقبلت يسوع، هي تستقبل كلّ إخوته في العالم، في كلّ حينٍ. أَيّتها السيّدة المضياف، ساعدينا على تقبّل الكلمة في صميم قلبنا، وعلى فهم اقتحام اللّه لنفوسنا مثلما فهمتِه، أَنتِ. فهو لا يقرع أَبوابنا كي يُنذرنا بالرحيل، بل كي يغمر بالنور وحدتنا، ولا يدخل إلى بيتنا كي يقيّدنا، بل لكي يبثّ فينا طعم الحرّيّة.

نحن نخشى كلّ جديدٍ، والتغيير يزعجنا. وبما أَنّ اللّه يقلب أَفكارنا ومخطّطاتنا، ويزعزع مسلّماتنا، فنحن نتوارى عنه كلّما سمعنا وقع خطواته قادمةً إلينا. فاجعلينا ندرك أَنّ اللّه عندما يقلب مخطّطاتنا، لا يطيح بأَعيادنا، وعندما يُقصي النوم عن جفوننا، لا ينتزع سلامنا...

أَيّتها المرأة المضياف، ساعدينا كي نكون منفتحين على إخوتنا. لقد تبدّدت ثقتنا بالناس، وغدونا نتوجّس في كلّ خطوةٍ فخًّا، وبات الشكّ في الآخرين معيار سلوكنا، بحيث تغلّب فينا الخوف من الخداع على غريزة التضامن الكامنة فينا. وأَمست قلوبنا تتحطّم وراء الأَسوار التي احتمينا بها.

فانتشلينا، يا أُمّاه، من خنادق أَنانيّتنا، وفكّي الأَغلال التي قيَّدنا بها مبادرات محبّتنا، وأَطيحي بكلّ صنوف الحدود التي تعيق اندفاع قلوبنا.

وعندما سننحدر عن صليب حياتنا الأَرضيّة تقبّلينا على ركبتَيْك،

وهبينا، ساعة موتنا، الثقة الساجية التي تغمر من يلقي رأسه على كتف أُمّه، ويغفو مطمئنًا، وأَبقينا، لحظةً، في حضنكِ، مثلما حضنتنا في قلبكِ، مدى حياتنا كلّها. وأَخيرًا، احملينا على ذراعيك الى الأَبديّ.

٧ – مريم، امرأة الخطوة الأولى

يقول لوقا إنّ مريم، فور تلقّيها البشارة، «قامت، وذهبت مسرعةً إلى جبال اليهوديّة...»، فهي، منذ استقبالها يسوع في أحشائها، أيقنت أنّ مهمّتها هي تقديمه للعالم. وقد كانت تلك الخطوة مبادرةً تلقائيّةً منها، لم ينصحها ولم يطالبها بها أحدٌ. لقد استشفّت، من كلام الملاك، أنّ قريبتها إليصابات، التي حبلت في شيخوختها، قد تواجه مصاعب، فهبّت لمساعدتها.

من هذا الواقع، استخلص الشاعر «دانتي» أنّ العذراء لا تقتصر على عون من يلتفت صوبها، بل إنّها، غالبًا، تستبق الرغبات بسخاء.

فيا سيّدة الخطوة الأولى، أسرعي إلى نجدتنا، قبل فوات الأوان، فنحن في حاجةٍ حارقةٍ إليكِ. أصغي إلى تنهّداتنا، واستَبِقي توسّلاتنا.

وعندما تجرّنا الخطيئة في تيّارها، وتشلّ حياتنا، استَبِقي استغاثتنا، وأقيمي الرجاء حول هزائمنا. فإن لم تكوني، أنتِ، المبادِرة، لَعجزنا حتّى عن الندم، ولآنغمسنا في طوايا الحمأة. وإن لم تحفري، أنت، في قلبنا، آبار الحنين، لفقدنا الشعور بالحاجة إلى الله.

من يدري كم أدهشتِ الآخرين بسبقهم إلى الغفران! وكم مرّةً، بعد تلقّيكِ إهانةً من جارةٍ، كنتِ، أنتِ، المبادِرة إلى قرع بابها، كي تحرّريها من حَرَج الاستصفاح، ولم ترفضي عناقها!

فهبينا قوّة اتّخاذ الخطوة الأولى نحو الصفح. وامنعينا من أن نُرجئ إلى الغد لقاءَ سلامٍ يمكن عقده اليوم. أحرقي تردّدنا، وبدّدي حساباتنا الصغيرة، ولا تدعي أحداً منّا يترك أخاه راقدًا على جمرٍ متّقدٍ، قائلاً: «عليه، هو، أن يكون البادئ بالاعتذار»!

وعندما سنمثل أَمام العليّ، استَبِقي حكمه. خذي بيدنا، ودثّرينا بمعطفك، وبنظرة عطفٍ من عينيكِ، انتزعي حكم رحمته، فنتيقّن من الظفر بصفحه. فما من سعادةٍ لدى اللّه أَعظم من تصديق ما تقرّينه، أَنتِ.

٨ – مريم المرأَة الرسول

يقول الرسول بولس، في رسالته إِلى الغلاطيّين: «لمّا حلّ ملء الزمان، أَرسل اللّه ابنه ، مولودًا من امرأة...»

اللافت في هذا القول هو أَنّ مريم، منذ ظهورها الأوّل على شرفة التاريخ، ظهرت إِلى جانب أَعظم المرسلين، إِلى جانب الابن، رسول الآب، فاتّضح أَنّ الملمح الأبرز في وجهها الأُموميّ هو ملمح الرسالة.

الملاك جاءها **مرسلاً** من لدن اللّه، وبثّ فيها ديناميّة الرسالة، فانطلقت مسرعةً إِلى إِليصابات، كي تبلّغ رسالة الخلاص الآتي، الثاوي في أَحشائها .

فذكّري، يا مرسلة، كنيسة ابنك أَنّ مهمّتها الأولى هي الرسالة، ونشر بشرى الخلاص. عندما هي تنزع الى الاختفاء في خيمةٍ لا تنفذ إِليها صيحات الفقراء، ادفعيها إِلى انتباذ التماس الأمان. وعندما تتمترس عند مواقعها ومكتسباتها، أَعتقيها من عقال الجمود، وعلّميها ألاّ تتوقّف عن الحجّ والترحال، فليس الاستقرار هو هدفها، بل السعي بلا هوادةٍ.

وأَنتِ، أَيّتها الرحّالة، أَودعي في قلبها هوى الإِنسان، وأَرشديها إِلى مواقع الأَلم ، وأَضرمي فيها الحدب على كلّ محتاجٍ. ومثلما قدّمتِ ابنك لرعاة بيت لحم، ولسمعان الشيخ، وللمجوس، ألهبي، في قلوب رعاتها ومؤمنيها، همّ تقديم وجه يسوع المشرق لجميع التوّاقين إِلى الخلاص.

وساندي بأَزرك أُولئك الذين فتنتْهم صورتكِ إِلى جانب مرسل الآب، وضحّوا بكلّ عاطفةٍ عذبةٍ، كي يحملوا بشرى الإِنجيل إِلى أَقاصي المسكونة. عندما ينال منهم الكَلَلُ والتعبُ، قفي إِلى جانبهم، واحميهم من كلّ خطرٍ. وعندما ينحنون على جراح الفقراء، أَضفي على أَعمالهم

رقّتك الطاهرة. ضعي على شفاههم كلمات السلام. واجعلي ألاّ يحجب نضالهم في سبيل العدل الأرضيّ، تطلّعاتهم إلى سماواتٍ جديدةٍ، وديارٍ علويّةٍ قشيبةٍ. أفعمي وحدتهم بحضورك ، وخفّفي وجع عضّات الحنين في نفوسهم ، وعندما تراودهم الرغبة في البكاء ، قدّمي لرؤوسهم كتف الأمّ.

اجعليهم شهود الفرح، وكلّما عادوا إلينا مضمَّخين برائحة الخنادق، اجعلينا، جميعًا، نستمدّ منهم الاندفاع، ونتبيّن تقاعسنا وبخلنا، حيال بذلهم، وبذخنا، قياسًا إلى تجرّدهم.

افتحي عيوننا كي نتبيّن مآسي العالم، ودعي صيحات الفقراء تهزّ طمأنينتنا. وأنتِ التي ارتجلت، في بيت إليصابات، أروع نشيد تحرُّرٍ، ألهمينا جرأة الأنبياء، لكيلا تكون لكلمات الرجاء على شفاهنا رنّة كذبٍ. وساعدينا كي ندفع، بفرحٍ، ثمن وفائنا للربّ. ونجّينا من التخاذل والاستسلام.

٩ – المرأَة المتحرّرة من قيود التقاليد

لم تقف مريم على الحياد، بل التزمت جانب الفقراء، المُذَلّين والمهانين، في كلّ عهدٍ وكلّ زمانٍ، جانب من همّشهم خبث البشر، ونبذتهم قوى القدَر، أي، بالإجمال، جانب من لا قيمة لهم في عيون التاريخ.

ولكنّ نشيد مريم ليس نشيد ثورةٍ سياسيّةٍ، بل هو نشيد تحرُّرٍ أعمق وأبقى ممّا ينتج عن الثورات الاجتماعيّة. ونبرات نشيدها النبويّة تتخطّى مطالبات العدالة الأرضيّة، وتهزّ أُسس كلّ ضروب الظلم.

لقد وقفتْ إلى جانب المقهورين، وانتظمتْ في صفّ الفريق الخاسر، ورفعتْ، بمثابة علمٍ، أسمال البائسين، عوضًا عن رايات المسيطرين البرّاقة.

انضمّت إلى جيش الفقراء، إن صحّ القول، ولكنّها لم توجّه سلاحها إلى الأَغنياء، بل دعتهم إلى هجر مواقعهم، ملوّحةً برحمة الله. قد يبدو موقفها هذا انحيازًا يتعارض مع شموليّة حبّها للخطأة، وأَشدّ هؤلاء إقلاقًا هم المتكبّرون، والطغاة، والذين خَوَت صدورهم من قلوبٍ تخفق. ولكنّ العذراء، في الواقع، ليست ممّن، حرصًا على طمأنينتهم، يُغضون عن الظلم والخطأ، وينأون بذواتهم عن المواقف التي تقتضي التزامًا، وتسبّب إزعاجًا. غير أنّها لا تدعو إلى حرب طبقاتٍ، ولا إلى مصالح فئاتٍ، بل إنّها تقف في الموقع الوحيد حيث تأمل أَن يلتقي، يومًا، جميع أَبنائها، من كانوا مقهورين، ومن كانوا قاهرين، وقد تحرّروا جميعًا، وتصالحوا.

أَيّتها المرأة المتحرّرة، كم نحن بعيدون عن منطقك! فقد راهنتِ على الفقراء، وجعلتِ من الفقر علامة استسلامكِ الكلّيّ لله، الذي اختار ما هو حماقةٌ في نظر العالم، كي يخزي به مدّعي الحكمة؛ واختار ضعفاء

العالم، كي يخزي بهم مدّعي القوّة، واختار المُذَلّين والمحتقرين، والذين ليسوا، في نظر العالم، شيئًا، لكي يُحيل إلى عدمٍ مدّعي العظمة.

نحن نسعى وراء كلّ مضمونٍ، وننأى بأنفسنا عن المغامرة، وعن اللامتوقَّع، مؤثرين الزحف على الحضيض، والتماس القوّة والنفوذ، والمال والحيلة، والنجاح والسلطة. فساعدينا على اختيار ما هو، بشريًّا، خاسرٌ، وعلى الاقتناع بأنّنا فقط بالانتقال إلى ضفّتك، سننقذ ذواتنا والآخرين.

احمينا من تجربة خدمة سيّدَيْن متناقضيْن، والجمع بين متنابذَيْن لا يلتقيان، ومن المساومة على الحقيقة، خشية فقدان حُظوة أَصحاب السلطان. وحرّرينا من اللامبالاة حيال المظالم والظالمين.

إنّ كنيسة ابنك تفتقر إلى الجرأة الكافية كي تحذو حذوك، وتفتنها مناورات الأَقوياء. قد تعلن إيثارها الأخيرين، ولكنّها، في الواقع، غالبًا ما تسير، ويدها بيد الأوّلين. فساعديها على مقاومة كلّ ما ينال من الكرامة البشريّة، وذكّريها بنبرات نشيدك التي تبدو أنّها ذهلت عنها، فتكون شاهدةً للحقّ والحريّة، وللعدل والسلام، وتُشيع، بين البشر، الرجاء في عالمٍ جديدٍ، عادلٍ.

١٠ - مريم امرأة النظرة الأولى

إِنّها الأولى التي حطّت عيناها على جسد اللّه العاري، وفي الحال غطّته بنظرها، قبل أَن تقمّطه، وسارعت إلى لفّه بأَدثرةٍ، لكيلا يبهرها نوره.

منذ قرونٍ ترقّب الأَجداد مجيئه، ولم يتسنَّ لهم فرح مشاهدته. والأنبياء رسموا ملامحه، ولكنّ عيونهم أُطبقت قبل أَن ترمقه بنظرةٍ. وأَفراد الشعب ما انفكّوا يحلمون به.

عيونٌ كثيرةٌ التمست رؤيته، ولم تحظَ بها. وأَخيرًا، هوذا عمّانوئيل، وقد غسلت جسدَه البضّ دموعُ النفساء الفتيّة، متلألئةً مثل أَحجارٍ كريمةٍ، على ضوء السراج المترجرج.

عينا مريم ترتجفان حبًّا أَمام جسد يسوع. وفي أَغوارهما تستعيد بريقها سلسلةُ الأَنظار التي تطلّعت ولم ترَ. وفي حدقتَيْهما تركّز انتظار الأَجيال، واستيقظت، بَغتَةً، النيران الغافية تحت رماد الزمن.

كانت مريم امرأة النظرة الأولى. فوحدها مخلوقةٌ مثل مريم كانت أَهلاً لاستقبال اللّه على الأرض، ولمداعبته بعينيها اللّتين تقطران قداسةً.

بعدها، كثيرون سيشاهدونه: يوسف، والرعاة، والمجوس، وسمعان الشيخ الذي قضى نحبه قرير العين، بعد أَن رأى فيه خلاص اللّه. ولكنّ مريم وحدها تشرّفت بغمره بنظرها، أَوّلاً، ووقَتْه خزّ القشّ، وقرّ البرد. فقد اختيرت، منذ الأَزل، لتكون ساقية النعمة الصافية.

فيا امرأة النظرة الأولى، هبينا نعمة الدهشة الدائمة. لقد سلب العالمُ قلوبَنا الرعشةَ، وحظر على عيوننا الفتنة، فجفّت نفوسنا، مثل مسير نهرٍ لا ماء يجري فيه، وباتت مواسمنا تتوالى ولا تثير فينا خلجة إِعجابٍ.

فأَعيدي إِلينا نكهة الخبرات الخلاصيّة، وأَفراح اللقاءات الحاسمة المشبعة بطعم «المرَّة الأُولى»، وأَعيدي إِلى عيوننا حنان النظرة التي حططتِها على وليدك. فنظراتنا قد أمست قاسيةً، جارحةً. أعيدي إِليها محبّة ابن اللّه، فإِنّ ما تزخر به من شهواتٍ وحسدٍ، بات يجرّد الآخرين من طهرهم وغناهم.

أنتِ، يا من تنعكس دائمًا في عينيها شفافيّة اللّه، ساعدينا على اختبار حقيقة قول ابنك: «سراج الجسد العين. فإِن كانت عينك سليمةً، كان جسدك كلّه في النور».

وشكراً لكِ، يا امرأة النظرة الأولى، فبانحنائك على وليدك مثّلتنا جميعًا. كنتِ الخليقة الأُولى التي تأمَّلت جسد اللّه المتأنّس، فاسمحي لنا أَن ننعم، من خلال نافذة ناظرَيْك، بمشاهدة تلك المعجزة الخارقة. وكنتِ، أَيضًا، المخلوقة الأولى على الأرض التي حطّت عليها عينا اللّه البشريّتان. فدعينا نتشبّث بثوبك، كي نشاركك هذه الحُظوة.

وشكرًا يا رفيقة أعياد ميلادنا. فأَنت رجاء وحدتنا، وعزاء مغاراتنا المقرورة، حيث لا أَجواق ملائكةٍ، ولا رعاةٌ. وسامحينا إِن شردت أَنظارنا بعيدًا، ناشدةً وجوهًا أُخرى، وإِن نحن جرينا وراء مظاهر جوفاء، فأَنت تعلمين أَنّ توقنا إِلى نظرك، ونظر ابنك، معًا، راسخٌ في أَعماقنا.

فألقي علينا نظرك، يا أُمّ الرحمة، ولا سيّما عندما ينتابنا شعورٌ بأَنّكِ، أَنتِ وحدك، ما زلتِ تحبّيننا.

١١ – مريم، امرأَة الخبز

«وأَضجعته في مذودٍ» (لوقا ٢:٧). هذه العبارة تتكرّر ثلاثًا، ولهذا التكرار، حسب أسلوب لوقا، مغزًى كبيرٌ، ورمزٌ واضحٌ. ولكأنّي بالإنجيليّ الرسّام يبتغي رسم لوحةٍ لمريم، وهي تملأ سلّةً خاويةً من الطعام. فكما أنّ المذود يُملأ بطعام البهائم، أَراد لوقا أَن يظهر يسوع، وكأنّه، منذ ظهوره، غذاء العالم، بل خبز العالم.

إنّه، في قُمُطه البيضاء، الخبز النازل من السماء. وإلى جانبه تنتصب الخبّازة انتصابَها أمام هيكلٍ. أَوَ ليست العناية هي التي اقتادتها من قريتها كي تضع ابنها في بيت لحم، «بيت الخبز»؟

مذود يسوع كان سلّة خبزٍ مقدَّمةً للعالم، وقُبَيْل القبض عليه، كسر الخبز، وخاطب العالم قائلاً: « هذا هو جسدي المبذول عنكم».

ومريم هي حاملة الخبز وموزّعته. كم جهدت، وهي على الأَرض، كي توفّر الخبز اليوميّ لأُسرتها، وربَّما بكت سرًّا، عندما كان يتعذّر عليها ذلك. وكان يسوع، حينئذٍ، يقرأ القلق في عينيها. ولكنّه، في معظم الأَيّام، كان ينتشي برائحة الخبز الساخن، الخارج للتوّ من التنّور، ويتناوله بمتعةٍ وشكرٍ.

ولكم يضجّ الإنجيل بفرح تكاثر الخبز بين يدَي الرب، وانتقاله من يدٍ إلى يدٍ، مشبِعًا أُلوف الفقراء الجياع المفترشين العشب!

ولذلك ضمّن يسوع الصلاةَ التي يتعيّن على كلّ مؤمنٍ توجيهها إلى الآب، طلب الخبز اليوميّ؛ وأُمّه أَلهمتنا التماس التوزيع العادل لكيلا ينام أَحدٌ من البشر على الطوى.

فيا مريم القدّوسة، امرأة الخبز، كم عانيتِ، في حياتك، لكي توفّري لابن اللّه مائدةً تشبعه، ولكي تملأي جيوبه ببعض حبّات تينٍ مجفّفٍ وزبيبٍ!

خبزك هو خبز العرق والجهد، نظير خبز يوسف، الذي كان يؤنس سعادةً غامرةً، وهو يضع اللمسات الأخيرة على مقعدٍ سيسلّمه قريبًا، ويقايضه بكيس حنطةٍ. وأيّة سعادةٍ كانت تتسرّب إلى نفسه، وهو يشتمّ رائحة خبزك، متضوّعةً على إيقاع شدْوكِ العذب، فيما كان ابنك، وهو يراقبك، يُعِدّ مثَلاً سيُعلن به: «يشبه ملكوت السماوات خميرةً أخذتها امرأةٌ، ودسّتها في ثلاثة أكيالٍ من الدقيق، حتّى اختمر الكلّ» (متّى ١٣:٣٣)!

فيا مريم القدّوسة، امرأة الخبز، أنت التي خَبَرَتْ معاناة من يكافحون في سبيل البقاء، ارأفي بملايين البائسين، ضحايا الجوع. اجعلينا نستجيب لتحدّيات صرخاتهم، وازرعي فينا الاضطراب، حيال مأساة الأطفال الذين يحصدهم الموت، وهم متشبّثون بأثداء أمّهاتهم الجافَّة. وليهزّ كلّ رغيفٍ يفيض عنّا ثقتنا في النظام الاقتصاديّ الذي يبدو أنّه لا يضمن سوى مصالح الأقوياء.

والجُمي أنانيّة الجالسين، برخاءٍ، إلى مائدة الحياة، حائرين في اختيار الأطعمة الوفيرة المزدحمة أمامهم، ومن حولهم مقاعد خاليةٌ، لو احتلّها جياعٌ لطردوا عن نفوسهم كآبة العزلة، ولسرّبوا إليها سعادة المشاركة.

يا مريم القدّوسة، يا امرأة الخبز، من، سواكِ، كان كفيلاً بتلقين ابنك العبارة التي أخزى بها المجرّبَ الخنّاسَ، في الصحراء: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلّ كلمةٍ تخرج من فم اللّه»؟ كرّري على مسامعنا هذه العبارة التي طالما تلفّظتِ بها، شاكرةً، في أيّام اليُسر، وواثقةً في ليالي الحرمان الطويلة.

رسّخي في خَلَدنا أَنّ الخبز ليس كلّ شيءٍ، وأَنّ المائدة الزاخرة لا تُشبع، عندما يعضّ القلبَ الجوعُ إلى الحقيقة، وأَنّ أَفخر الأَطعمة السائغة تفقد نكهتها، عندما تكون النفس مفتقرةً إِلى السلام.

فعندما تشاهدينا نقف، غير راضين، أَمام مخازنَ مكتظّةٍ بالأَطعمة، ارأفي بنا. سكّني جوعنا الى السعادة، وضعي على مائدتنا، كما فعلتِ، تلك الليلة، في بيت لحم، الخبز الهابط من السماء. فوحده من يتناول هذا الخبز لَن يعرف الجوع إِلى الأَبد.

١٢ – مريم امرأة الحدود

ما تكاد مريم تظهر على مسرح الخلاص حتّى نشاهدها تجتاز الحدود، لا طلبًا للرزق، بل بصفة لاجئةٍ سياسيّةٍ.

أمر الملاك ليوسف كان واضحًا لا لَبْس فيه: «قمْ فخذ الصبيّ وأُمّه، واهرب إلى مصر، وأقم هناك حتّى أقول لك....». وها هي الأُسرة الصغيرة تهجر أَرض كنعان القانية إلى رمال الفراعنة.

من المحقّق أنّ الطفل الذي كانت مريم تحمله بين ذراعيها يملك من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصي الأَرض. ولكن هل تجسر أُمّه على إظهاره لشرطة الحدود؟

مرَّةً أُخرى، نشهد امرأة الحدود، في العلّيّة، عندما حلّ روح اللّه على أعضاء الكنيسة الناشئة، الملتئمة تحت رعايتها، كي يجعلهم شهودًا له حتّى أَقاصي الأَرض.

ثمّ نشهدها تجتاز الحدود إلى أَفسس، مع يوحنّا الذي أوكلها يسوع إلى عنايته، وقد أَصبحت أُمّ جماعةٍ كبيرةٍ من كلّ أُمّةٍ، وجنسٍ، وشعبٍ، ولغةٍ، وباتت تحمل جنسيّةً كونيّةً.

غير أنّ امرأة الحدود تتجلّى بكل عظمتها، وبأسمى رموزها، أَمام الصليب. فتلك الخشبة المقدّسة لم تقوّض، فقط، الحواجز بين الشعوب، بل هي صالحت البشر مع اللّه، في جسد المصلوب. إنّ الصليب هو الخطّ الفاصل الأَخير بين السماء والأَرض، هو الحدود التي أَمست مشرعةً بين الزمن والأبديّة، هو التخم الأَقصى الذي ينفذ منه التاريخ البشريّ إلى التاريخ الإِلهيّ، ويضحي تاريخ الخلاص الوحيد.

ومريم كانت عند هذا التخم الأَخير وروته بدموعها.

فيا أيّتها القدّيسة مريم، امرأة الحدود، شكرًا لحضورك عند صليب يسوع، الذي نُصِب خارج الأماكن المأهولة، رامزًا إلى ضواحي التاريخ، وإلى كلّ مهمّشٍ في العالم، ولكنّه نُصِب في مكانٍ حدوديٍّ حيث يدخل المستقبل إلى الحاضر، ويغمره بالرجاء. وكم نحن بحاجةٍ إلى هذا الرجاء! فقفي إلى جانبنا. إنّنا نخوض مرحلةً انتقاليّةً، عبورًا مؤثّرًا بين حقبةٍ وأُخرى. ولكنّنا، من جرّاء تباين الثقافات، نخشى تخطّي حدودٍ طالما حمتْ هويّتنا. إنّنا نخشى «الأَشياء الجديدة» التي تدفعنا إليها جموع الفقراء، والمقهورين، واللاجئين، وجميع الذين يقلبون، رأسًا على عقبٍ، القواعد التي طالما درجنا عليها.

إنّنا بحاجةٍ إليك، يا امرأة الحدود، لكي ينتصر الرجاء، ولكي لا تطيح به صدمة المستقبل. نحن مفتونون برؤيتك منتصبةً، دائمًا، فوق الخطوط الحدوديّة، دائبةً لا على الفصل والتفريق، بل على توحيد عوالم مختلفةٍ تتصارع.

إنّك تنتصبين على القمّة الفاصلة بين العهد القديم والعهد الجديد. إنّك الأفق الذي تلتقي فيه ظلمات الليل المتسحّبة بتباشير النهار الوليد. أَنت الفجر الذي يسبق شمس العدل. أَنت نجمة الصبح. فيك تمّ ملء الزمان، وقرّر الله أَن يولد من امرأةٍ. وفي شخصك اكتملت مسيرةٌ مرتكزةٌ على العدل، ونضجت حقبةٌ مرتكزةٌ على الرحمة.

أَيّتها القدّيسة مريم، يا امرأة الحدود، ثمّة تسميةٌ عذبةٌ تبتهل بها إليك التقاليد المسيحيّة العريقة، معبّرةً عن حضورك عند أَقاصي الأَرض، فهي تدعوك: باب السماء.

ففي ساعة موتنا، قفي إلى جانب وحدتنا، كما فعلتِ مع يسوع. اسهري على نزاعنا، ولا تنأَيْ عنّا، ومدّي لنا يدك، عند الخطّ الأَخير الذي يفصل المنفى عن الوطن. فإِن أَنتِ كنتِ هناك، عند عتبة خلاصنا الحاسمة، توفّقنا إلى اجتياز الحدود، ولو لم يكن بيدنا جواز سفرٍ.

١٣ – مريم، المرأة الشجاعة

مذ قال لها الملاك المبشّر: «لا تخافي»، أمست مريم رمزًا للأمّهات الجريئات، في كلّ زمنٍ. ومع ذلك كان للخوف إلى نفسها طريقٌ: خوفٍ من أن يُساء فهمها؛ خوفٍ من خبث البشر؛ خوفٍ على صحّة يوسف؛ خوفٍ على مصير يسوع؛ خوفٍ من الوحدة...

الخوف هو دليل محدوديّة البشر، وكم من ضروب الخوف يصارعون! خوفٍ من الغد؛ خوفٍ من انصرامٍ مفاجئٍ لحبٍّ طالما روعيَ؛ خوفٍ على شابٍّ عاطلٍ عن العمل لا يجد إلى الاستقرار سبيلاً؛ خوفٍ على ابنةٍ تتصرّف على هواها، ولا تأخذ بنصحٍ ولا بإرشادٍ؛ خوفٍ على صحّةٍ تتهاوى؛ خوفٍ من الشيخوخة؛ خوفٍ من الليل، خوفٍ من الموت...

حيال كلّ هذه المخاوف وسواها، يمكننا المضيّ قُدُمًا مردّدين مع مريم: «الربّ راعيَّ فلا يعوزني شيءٌ... إنّني، ولو سلكت في وادي ظلال الموت، لا أُخاف سوءًا، لأنّك معي. عصاك وعكّازك هما يعزّياننني... الطيبة والرحمة تتبعانني جميع أيّام حياتي، وسكناي في بيت الربّ طول الأيّام» (المزمور٢٣).

العذراء هي سيّدة الخوف، وملاذه، ولكنّها ليست سيّدة الاستسلام. فهي لم تسدل، يومًا، ذراعيها تخاذلاً، ولم ترفعهما معلنةً الاستسلام. بل مرّةً واحدةً استسلمت، عندما أعلنت للملاك: «فليكُنْ...»، وجعلت نفسها سجينة الربّ.

ومنذئذٍ قاومت بعزيمةٍ مدهشةٍ، متصدّيةً لمصاعب كأداء جمّةٍ، كان من شأن أيّ إنسانٍ أن يتهاوى دونها: من وضعها ابنها الإلهيّ في زريبة بهائم، حتّى نبوءة سمعان المثقلة بالنذُر، والنفي إلى مصر، هربًا من اضطهاد هيرودُس. ومن سلسلة تضحيات حياةٍ شاقّةٍ، متّصلةٍ، اندرجت

في الصمت مدى ثلاثين عامًا، حتّى إقفال منجرة ابنها العابقة برائحة الخشب والصمغ، إقفالاً نهائيًّا؛ ومن الهواجس الناجمة عن أنباء تتحدّث عن تهوّر ابنها في أداء رسالته، حتّى وقوفها، صامدةً، في الجلجلة، عند أقدام صليبه، متحدّيةً شراسة الجند، ودمدمات الجماهير الحاقدة.

محنتها كانت قاسيةً، وعليها، أيضًا، ران صمت الله بكلّ وِقْره. غير أنّ البابا يوحنّا بولس الثاني قد جعل منها النموذج الأمثل لمن لا يرضخون، بل يقاومون الظروف المناوئة، في حياتهم الشخصيّة والاجتماعيّة، ويأبون أن يكونوا ضحايا الاستلاب.

لقد تصدّت للصعاب ببسالةٍ، وقاومت المظالم الاجتماعيّة، وجابهت المخاطر، غير مدّعيةٍ أنّ امتياز كونها أُمّ الله يقيها من قسوة الحياة.

فيا مريم القدّوسة، أيّتها المرأة الشجاعة، التي استوعبت، من خلال نزاع ابنها على الصليب، آلام جميع نساء الأرض، وامتصّتها كإسفنجةٍ، هبينا شيئًا من قوّة مراسك. ناصري المدافعين عن كرامتهم المسفوحة، وخفّفي آلام الظلم. وعندما يدقّ نفير الحرب، ادفعي جميع النساء إلى الوقوف، بجرأةٍ، عند عتبات منازلهنّ، للحؤول دون حمل رجالهنّ السلاح، من أجل قتل إخوتهم، كما فعل قايين.

وأنت التي نالت، في الجلجلة، سعفة الشهادة، ساعدينا على ألاّ ننهار في وجه الشدائد، بل أن نقتدي بمثالك. أعينينا على احتمال الاضطرابات اليوميّة، لا بروح البائسين، بل بسجوٍّ من يوقن أنّه لاطٍ في راحة كفّ الله. وعندما تراودنا تجربة الاستسلام، وقد ضقنا بكلّ شيءٍ ذرعًا، قفي إلى جانبنا، وأسمعينا كلمات رجاءٍ.

وحينئذٍ، فلينفث فينا نَفَسُك العزاءَ، فنناشدك بأقدم دعاءٍ رُفِعَ إليك: «إلى ظلّ حمايتك نلتجئ، يا أُمّ الله. فلا تهملي التوسّلات التي نوجّهها إليك في المِحَن، بل نجّينا، دائمًا، من كلّ خطرٍ، أيّتها العذراء المغمورة بالمجد والبركات».

١٤ – مريم، المرأة المرتحلة

يسوع تماهى بالطريق، وعندما دعا تلاميذه إلى اتّباعه، أعلن: «أنا الطريق»! وعلى غراره، استحقَّت أُمّه قصب السبق في الضرب على دروب الرسالة.

إنّنا نراها، دائمًا، على أحد دروب فلسطين، وأحيانًا خارج دروب فلسطين. نراها مسرعةً على الدرب صوب عين كارم، لخدمة إليصابات، لتكريس ابنها، سابق يسوع. ثمّ نراها على درب بيت لحم لوضع وليدها، ثمّ على درب أورشليم لتقديمه إلى الهيكل؛ ثمّ على درب المنفى المصريّ؛ ثمّ نراها عائدةً إلى الناصرة.

ونراها حاجّةً إلى المدينة المقدّسة، منفقةً يومين إضافيّين في ذهابٍ وإيابٍ، بحثًا عن ابنها الذي تخلّف في الهيكل، متفقِّدًا شؤون أبيه.

ونشاهدها في الجليل، محاولةً اختراق الحشود بغية رؤية ابنها، ربّما لنصحه بالاعتدال، أو رغبةً في العودة به إلى المنزل، خشيةً عليه من الإرهاق ومن مكر اليهود.

وأخيرًا نشهدها على درب الجلجلة، في غاية شوطٍ أليمٍ، عند أقدام الصليب.

ونرى إيقونة الترحال بلا هوادةٍ، هذه، جالسةً في مأدبة عرسٍ، جالسةً ولكن غير جامدةٍ، إذ لا عهد لها براحةٍ. وإن هي، هنا، لم تجرِ بجسدها، إلاّ أنّها جرت بروحها، وإن هي لم تسعَ نحو ساعة يسوع، إلاّ أنّها استقدَمَت إليها هذه الساعة.

إنّها، دائمًا، على دربٍ، وهو، غالبًا، دربٌ مصعّدٌ، وقلبها يدقّ على

إيقاعٍ لهاث المرتفعات. الإنجيل يصف تحرّكها، دائمًا، بالصعود، لا إشارةً، فقط، إلى لهاث التصعيد، وتورّم القدمَيْن، بل إيحاءً بأنّ حجّ مريم على الأرض يرمز إلى ما تقتضيه المسيرة الروحيّة من كدٍّ وجهدٍ.

يا مريم القدّيسة، يا امرأة الدروب، كم نودّ اقتفاء أَثرك، في سعينا اللاهث، ولكنّ سعينا يفتقر إلى الهدف. نحن، مثلك، حجّاجٌ، ولكن ما من معبدٍ نفيء إليه، ونرتاح فيه. قد نكون أَسرع منك جريًا، ولكنّ خطواتنا تضيع في الصحراء، ونحن نسير على إسفلتٍ لا يحتفظ بآثار أَقدامنا.

مجتمعنا ينذرنا: «اركض بلا هوادةٍ لكيلا تنفُق». ولكن ليس في محفظتنا خارطةٌ تضفي على جرينا معنًى. ورغم كثرة المنافذ والتفرّعات، لا ننفكّ ندور على دروب العَبَث، ولكأنّه حُكِمَ علينا، بلا رحمةٍ، ألاّ نرى سوى مشاهد اللامعقول.

هبينا تذوّق نكهة الحياة، ونشوة الأَشياء. وقدّمي لنا أَجوبة أُمٍّ على تساؤلاتنا حول مغزى جرينا الذي لا ينتهي. وإن كانت عجلات مركباتنا القاسية تمنع الأزاهير من الانبثاق مثلما كانت تنبثق تحت وطأة أقدامك الحافية، فساعدينا على الحدّ من جنون سرعتنا، كي نتنشّق عبير الزهور، ونتأَمّل جمالها.

ويا مريم القدّيسة، امرأة الدروب، اجعلي من دروبنا أَدوات تواصلٍ مع الآخرين، مثلما كانت دروبك، وحولي دون كونها شرائط فاصلةً، تضمن عزلتنا الأَنانيّة.

حرّرينا من هواجس المدينة الكبرى، وازرعي فينا صبر اللّه، الذي يدفعنا إلى حثّ الخطى، بُغيةَ اللحاق برفاق دربنا، في حين أَنّ ضغوط المدينة تدفعنا إلى سبق الآخرين، في منافسةٍ لا ترحم، قد تُكسبنا بعض الوقت، ولكنّها تُفقدنا الأخ الذي يسير إلى جانبنا. إنّها تُسيل في عروقنا هَيَجان

السرعة، ولكنّها تفرغ أيّامنا من الحنان. إنّها تدفعنا إلى الضغط، بعنفٍ، على أَداة السرعة في عربتنا، ولكنّها لا تُسبغ على استعجالنا نكهة المحبّة التي كانت تطبع استعجالكِ. إنّها تختزل حتّى العواطف في شعاراتٍ، ولكنّها تحرمنا متعة العلاقات القصيرة التي تحتاج إلى مئة كلمةٍ فرحةٍ، كي ترتدي ثوب إنسانيّةٍ حقّةٍ.

يا مريم القدّيسة، امرأة الدروب، يا علامة الرجاء الأَكيد، وعزاء شعب اللّه الضارب على الدروب، اجعلينا نبحث في خرائط التاريخ، أَكثر من بحثنا في خرائط الجغرافيا، عن دروب حجّنا. فعلى هذه الدروب ينمو إيماننا.

خذي بيدنا، واجعلينا نتبيّن حضور اللّه القدسيّ في مسيرة الأَيّام، وأَحداث الزمن، وتعاقب الفصول البشريّة، في شَفَق صباح الشعوب الجديدة، وفي توقّعات التضامن الآخذة بالشيوع.

وقودي خطواتنا صوب هذه المعابد، كي نترسّم، في رمال العابر الفاني، آثار الأَبديّ. وأَضفي على قلق سياحتنا، التي لا هدف لها، نكهةَ البحث الداخليّ.

وإن شاهدتِنا تائهين على جوانب الطريق، أوقفينا، أَيّتها السامريّة الرقيقة، واسكبي على جراحنا زيت العزاء، وخمر الرجاء. وأَعيدينا إلى الصراط القويم. وحوّلي أَنظارنا عن ضباب «وادي الدموع» ، حيث تنصبّ أَحزاننا، نحو القمم التي يأتينا منها العون. وحينئذٍ، سيزدهر، على دروبنا، تهليل نشيدك، الذي دوّى، في ربيعٍ بعيدٍ، على تلال اليهوديّة.

١٥ – مريم، امرأة الراحة

لرفائيل لوحةٌ تُظهر العذراء، وهي تضمّ، بحنانٍ، ابنها الغافي بين ذراعيْها، وتنعم معه بسكونٍ سحيق. ولا ريب أَنّ مريم، مثل كلّ الأُمّهات، كانت تهدهد طفلها، كي تُقصي عنه كلّ خوفٍ، وتشدو له تهويداتٍ عذبةً تُغرقه في نومٍ ساجٍ.

وما أَكثر الذين أَلّفوا تهويداتٍ لم يضعوها على لسان مريم، بل التمسوا بها، من العذراء، أَن تهدهدهم كي ينعموا بالسكينة في حضنها!

ولم تقتصر مريم على توفير الراحة لطفلها فحسب، بل لطالما وفّرتها لزوجها كما لم توفّرها امرأةٌ، قطّ. فقد كان يوسف، عقب يومٍ حافلٍ بالكدّ، يجد بالقرب منها راحةً لا يعكّرها نقيقٌ أَو تكديرٌ، راحةً تجعل نومه فسحةً سماويّةً حافلةً برؤًى ملائكيّةٍ. لم تكن تكتفي بتخفيف تعبه بما تحيطه به من عنايةٍ ولطفٍ، بل كانت توفّر له مُناخ راحةٍ يُدخله، برقّةٍ وعذوبةٍ، في الجوّ العلويّ الذي كانت تحيا فيه.

وربّما منها تلقّن يسوع أُسلوب الرقّة هذا، واستخدمه مخاطبًا تلاميذه، عندما تبيّن تَعَبهم: «تعالوا،أَنتم وحدكم، إلى مكانٍ قفرٍ، واستريحوا قليلاً» (مرقس٦:٣١). مثلما استخدمه في دعوة الجموع التعبة من الحياة، الرازحة تحت وقر الهموم: «تعالوا إِليّ، يا جميع المتعبين تحت ثقل أَعبائكم، وأَنا أوتيكم الراحة. خذوا نيري عليكم، وتتلمذوا لي، لأَنّي وديعٌ ومتواضع القلب، فتجدوا الراحة لنفوسكم. أَجل إِنّ نيري ليّنٌ، وحملي خفيفٌ» (متّى ١١: ٢٨ –٣٠).

فيا مريم القدّوسة، يا امرأة الراحة، قصّري ليالي أَرَقنا التي تغزونا فيها قوافل الذكريات الأَليمة، وتعتصر الهواجس قلوبنا، فعندئذٍ، تغدو أَكثر

الأَسرّة لينًا أَداة عذابٍ، ويمسي عواء الكلاب الشاردة صدىً لتأوّهات الكون، وتتساقط دقّات الدقائق البسيطة، من الساعات الكبيرة، تساقط المطارق على نفوسنا.

اسهري على راحة من يعيشون في الوحدة، وأَطيلي فسحات نوم الشيوخ، وآزري الراقدين على أَسرّة الأَلم، جاهدين في استراق لحظات نومٍ خاطفةٍ. هدّئي روع من يتقلّب على جمر سريره، خوفًا ممّا يخبّئه الغد. وأَشيعي الدفء في الأَغطية الزريّة التي يلتفّ بها مشرّدون يرقدون في العراء.

ونسألك، يا امرأة الراحة، أَن تُسيلي السكينة في قلوب من يجهدون في نشر بشرى الإنجيل، وتحبطهم لا مبالاة الكثيرين، ولكأنّهم يجأرون بالشكوى، مثل بطرس: «لقد كددنا الليل كلّه، ولم نصب شيئًا». وعندما تأخذ بهم غيرة الرسالة كلّ مأخذٍ، فيذهلون عن ذواتهم، ويهملون واجب الراحة والاستجمام، ذكّريهم أَنّ الإسراف في الإرهاق ليس بخورًا مرضيًّا لدى الله، على حدّ قول المزمور: «باطلٌ لكم أَن تبكّروا في القيام وتتأخّروا في الرقاد، وتأكلوا خبز المتاعب، فإنّه، بين ذلك، يمنح أَحبّاءه راحة النوم». وليفهموا أَنّكِ، لا تدعينهم إلى التقاعس عمّا التزموا به، بل إلى إيداع جهودهم بين يدي من يملك، وحده، إخصاب عمل البشر.

ويا مريم القدّيسة، امرأة الراحة، أَعيدي لنا نكهة يوم الراحة الأسبوعيّة، حيث ننفق بعض الوقت في التحدّث مع أَصدقائنا وذوينا، غير حافلين بانسياب الزمن. حرّرينا من همّ المهامّ المتراكمة، وأَقنعينا أَنّه خيرٌ لنا أَن نجلس، بين مرحلةٍ وأُخرى، في خيمةٍ، ونعكف على تقييم ما حقّقناه، وما أَخطأناه، من أَن نواصل، بلا هوادةٍ، مسيرةً مرهقةً غير متبصّرةٍ.

ورسّخي في خَلَدنا أَنّ أَخصب استجمامٍ هو الوقت الذي ننفقه مع الله. فكم من الوقت ينفقه هو، وتنفقينه، أَنتِ، معنا!

وحتّى عندما نتلكّأ في العودة مساءً، انتظرينا عند عتبة بيتنا، في غاية شوطنا المجنون.

وإن لم نجد وسادةً نلقي عليها رأسنا التعِب، قدّمي لنا كتفك، كي نبدّد تعبنا، ونتذوّق راحة النوم.

١٦ – مريم، امرأة الخمرة الجديدة

إنَّ في حَدَث عرس قانا ما يتخطّى قصد إبراز حسّ مريم المرهف، ومدى استجابة يسوع لوساطتها. بل من المرجّح أنّ يوحنّا الإنجيليّ قد ابتغى الإشارة إلى أنّ العذراء قد أدركت أنّ العهد القديم قد أدّى مهمّته، وأنّ العالم بات في حاجةٍ إلى عهد ابنها الجديد، فسبَّقت ساعته، وأدخلت إلى مائدة التاريخ لا جرار العيد فحسب، بل خمائر التجديد الأولى.

وما يشير إلى ذلك هو وجود ستّة أجاجينَ حجريّةٍ كانت تُستخدم لتطهير اليهود. هذه الأجاجين تبدو وقحةً في جمودها، مزعجةً بما تشغله من مكانٍ، باردةً كالجُثَث، لأنّها مصنوعةٌ من حجرٍ، نافلةً لأنّها فارغةٌ، ومن ثمّ عاجزةٌ عن توفير أدنى تطهير.

إنّها ستّةٌ، في حين أنّ رقم السبعة هو رمز الكمال. فإذن، هي رمزٌ كئيبٌ إلى ما لن يكتمل أبدًا، وما لن ينضج، وما سيظلّ دون كلّ توقُّعٍ مشروعٍ، وما يعجز عن تلبية حاجات القلب.

حيال هذا الشلل النهائي المتمثّل في أجاجينَ مصنوعةٍ من حجرٍ، مثل ألواح موسى، تبيّنت مريم أنّ العهد القديم قد نضبت بئره، وأنَّ تدابير الخلاص القائمة على وصايا الشريعة قد أدّت حسابها، وأنّ الانتقال بات محتّمًا.

لقد رأتْ أنّ نفير الخطر قد دقّ منذرًا عالـمًا يحتضر في الحزن، مطالبًا ابنها بأكثر من مخالفة سُنَن الطبيعة، مطالبًا إيّاه بتخطّي طبيعة الشريعة التي خوت من محتواها، وأضحت عاجزةً عن تطهير أيّ إنسانٍ، وعن بعث الفرح في أيّ قلبٍ.

لذلك بادرت مريم والتمست من ابنها عربونًا عن خمرة العهد الجديد، التي ستتفجّر من الصليب، أمام عينيها، ولن تنضب أبدًا.

قولها: «لم يبقَ لديهم خمرٌ» ليس فقط دليل عطفٍ، وسهرٍ على الآخرين، وحرصٍ على إنقاذ عريسَيْن من الفضيحة، بل هو صرخة إنذارٍ هدفها تجنيب العالم الموت.

فيا مريم القدّيسة، يا امرأة الخمرة الجديدة، إنّنا نرى مأدبة الحياة يخبو وهجها، والسعادة تنطفئ على وجوه المدعوّين. إنّها ما برحت عامرةً بكلّ الطيّبات، ولكنّ فرحة الخمرة تبخّرت، فأمسى الندامى يمضغون، بملٍ، منتوجات الوفرة، أو يبتلعون، بنهمٍ، ما لا يستسيغون.

هذا التضخّم في الملل إن هو إلاّ نتاج تبلّد المشاعر. فتحنّني علينا، وأعيدي لنا طعم الأشياء، فهذه هي الوسيلة الوحيدة لكي تمتلئ خوابي وجودنا بالقِيَم العليا، ولكي تُشيع فينا نشوةُ الحياة وإحياء الآخرين، الدوارَ.

يا مريم القدّوسة، يا امرأة الخمرة الجديدة، لقد أطلقتِ، في قانا الجليل، قبل الأوان، أعظم حَدَثٍ في التاريخ، عندما حملتِ يسوع على تقديم مشهدٍ عن الفصح النهائيّ. ومازلتِ، لنا، رمز الشباب الذي لا يَشيخ، الشباب الذي يتبيّن اهتراء النماذج المتهاوية، ويسعى وراء ولاداتٍ جديدةٍ لا تتحقّق إلاّ بفضل انقلاباتٍ جذريّةٍ وصريحةٍ.

فحرّرينا من المُتَع السهلة، ومن الارتدادات المبتسرة، ومن محاولات الترقيع المؤقّت. احمينا من ضمانات مواقعنا المغلقة الزائفة، ومن ملل تكرار الطقوس، ومن الثقة العمياء في القواعد العامّة، ومن تقديس التقاليد.

وعندما تنتابنا خشيةٌ من أن تمزّق الخمرةُ الجديدةُ الزقاقَ العتيقةَ، هبينا حكمة استبدال الأوعية. وعندما يستحوذ علينا سحر الوضع الراهن، هبينا العزيمة على هجر مخيّماتنا؛ وعندما ينخفض توتّر طاقتنا، أشعلي فينا جرأة المضيّ قُدُمًا.

وأفهمينا أنّ انغلاقنا دون جدّة الروح، وارتضاءَنا بالآفاق الواطئة، لا يُفضيان بنا إلاّ إلى كآبة شيخوخةٍ مبكّرةٍ.

ويا مريم القدّوسة، يا امرأة الخمرة الجديدة، نشكركِ، لأنّكِ بقولكِ: «افعلوا ما يقول لكم»، كشفتِ لنا الحجاب عن سرّ الشباب، وأوليتنا قدرة إيقاظ الفجر في قلب الليل.

١٧ – مريم، امرأة الصمت

من بين الألقاب التي تطلق على العذراء، ويتنافس فيها خيال الشعراء ورقّة التقوى الشعبيّة، ثمّة تسميةٌ مثقلةٌ بالمغزى هي: مريم كاتدرائيّة الصمت.

مريم حريصةٌ على الصمت، ولا تقطعه حتّى عندما تتكلّم. إنّها مقلّةٌ في الكلام، ولا تتكلّم، في الإنجيل، سوى أربع مرَّات: عندما بشّرها الملاك، وعندما أدّت نشيد تسبيحها لله، في بيت إليصابات، وعندما عثرت على يسوع في الهيكل، وهو ابن اثنتيْ عشرة سنةً، وفي عرس قانا الجليل. ولكنّها، في هذه النوبة الأخيرة، وبعد أن أوصت بالإصغاء إلى كلام ابنها، والعمل بمقتضاه، اعتصمت بالصمت.

بيد أنّ صمتها ليس مجرّد إمساكٍ عن الكلام، أو إسرافٍ في الاقتضاب، بل هو غطاءٌ لاهوتيٌّ لحضورٍ، وغمدٌ لامتلاءٍ، وحضنٌ يحفظ الكلمة.

لقد وصف الرسول بولس يسوعَ بأنّه اعتلان السرّ المحفوف بصمتٍ أبديٍّ. إنّه سرٌّ صامتٌ خفيٌّ. أي إنّ كلمة الله كان، في حضن الأبديّة، مقمّطًا بالصمت، وعندما وافى إلى حضن التاريخ، احتفظ بتلك القُمُط التي قدّمتها له مريم، في شخصها، وبذلك أمست امتدادًا أرضيًّا لصمت السماء السرّيّ، ونموذجًا لكلّ من يبتغي الحفاظ على أسرار الحبّ. وهي، لنا، هيكل صمت الكلمة، فقد كانت «تحفظ، بحرصٍ، كلّ تلك الأمور، في قلبها».

فيا مريم القدّوسة، يا امرأة الصمت، عودي بنا إلى ينابيع السلام، واحمينا من غزو الكلام، كلامنا أوّلاً، وكلام الآخرين.

نحن أَبناء الضجيج، نتوهّم تمويه القلق الذي يضنينا، بتكرار خطاباتنا التي لا نهاية لها. فرسّخي في يقيننا أَنّ اللّه لن يكلّمنا حتّى نصمت. ونحن، المتضامنين مع الصخَب، نعتقد أَنّ بوسعنا طرد الهواجس، بإِعلاء صوت المذياع. فاجعلينا ندرك أَنّ اللّه لا يخاطب الإِنسان، إِلاّ فوق رمال الصحراء، وأَنّ ليس لصوته علاقةٌ بمقاييس شدّة ضجيجنا.

وأَفهمينا، في العمق، قول سفر الحكمة: «وحين شمل كلَّ شيءٍ هدوء السكوت، وانتصف مسير الليل، هجمت كلمتك القديرة من السماء، من العروش الملكيّة، على أَرض الخراب».

عودي بنا، نرجوكِ، إِلى دهشة المغارة الأُولى الحالمة، وأَيقظي، في قلوبنا، الحنين إِلى تلك «الليلة الصامتة».

وحدّثينا عن مواعيدكِ مع اللّه، في الحقول، بعيدًا عن ضجيج الناصرة، حيث كنتِ تفزعين كي تصغي إِلى صوته؛ وعن مخابئكِ بين الصخور، لكي لا يدنّس عنفُ صخب البشر صفوَ لقائكِ به، وعن شرفات الجليل التي ينيرها البدر، حيث كنتِ تغذّين أَسهاركِ بالترانيم...

هل كان لك سجلٌّ تودعينه أَقوال ابنكِ خلا سجلّ قلبك؟ وأَيّة أَحاديث تجاذبتما طيلة ثلاثين سنةً، حول المائدة المتواضعة؟

فيا مريم القدّوسة، يا امرأة الصمت، تقبّلينا في مدرستكِ. وأَبعدينا عن أَسواق الصخب حيث نُمنى بالصمم. واحمينا من هَوَس الأَخبار الوبيل، الذي يحول دون سماعنا «البشرى». وأَعيدي لنا متعة التأَمّل، حتّى وسط أَعاصير المدينة، ورسّخي في قناعاتنا أَنّ أُمور الحياة العظمى: الارتداد، والحبّ، والتضحية، والموت، لا تنضج إِلاّ في مناخ الصمت.

ويا أَيّتها الأُمّ الرقيقة، لنا طلبٌ أَخيرٌ: فأنتِ، على غرار يسوع المصلوب، خبرتِ صمت اللّه. فلا تنأي عنّا في ساعة المحنة. وعندما تنحجب الشمس عن أَبصارنا، وتأبى السماء الإِجابة على أَنيننا، ويتردّد

لخطواتنا على الأَرض صدى الفراغ، ويكاد خوفنا من التخلّي يُسيل القنوط في نفوسنا، ابقي إلى جانبنا. وفي هذه اللحظات، اخرجي من صمتكِ، واهمسي في آذاننا بضع كلمات حبٍّ.

وحينئذٍ تداعبنا رعشة الفصح، قبل أَن يكتمل نزاعنا.

١٨ – مريم، المرأة المطيعة

ليست الطاعة إذعانًا سلبيًّا، وخضوعًا قصريًّا، بل هي توافق إرادة المطيع مع إرادة آخر، وتبنّي رؤاه، بُغيةَ تحقيق هدفٍ سامٍ.

وبالتالي، إنّ من يطيع لا يلغي إرادته، بل إنّه ينمّيها، ولا يتردّى إلى دور الآلة المذلّ، بل إنّه يفعّل أعمق ما لديه من آليّات الإصغاء والحوار.

الطاعة تقتضي فريقًا يقترح باحترامٍ، وآخر يستجيب بحبٍّ، فريقًا يشير إلى هدفٍ، بمعزلٍ عن أيّ ظلٍّ لعنفٍ، وفريقًا آخر يتبنّى الإشارة بفرحٍ.

المطيع لا ينحني، بل يظلّ منتصبًا، صامدًا. وحده من بقيَ واقفًا، يُطيع. أمّا الذي يركع، فهو يذعن، ولكنّه لا يُطيع؛ يتهاوى، ولكنّه لا يحبّ؛ يستسلم، ولكنّه لا يتعاون.

ليست الطاعة احتمال ظلمٍ، بل هي اختبار حرّيّةٍ. ليست صمتًا مكظومًا حيال ضروب التنكيد، بل هي ترحيبٌ فرحٌ بهدفٍ سامٍ. ليست موقف تقاعسٍ من قِبَل من يواجه الندم وحيدًا، بل هي جوابُ حبٍّ، يفترض، لدى من يطلب، من النبل، أكثر ممّا يفترض من السيطرة.

المطيع لا يضحّي بإرادته، ولكنّه يمعن في التماهي مع الآخر المحبوب، بحيث يتحقّق توافقٌ تامٌّ بين إرادته وإرادة ذلك الآخر.

تلك كانت طاعة مريم. فتلك المخلوقة الرائعة لم تدع أحدًا يسلبها إرادتها حتّى خالقها. غير أنّها بقولها له «نَعَم»، استسلمت له بحريّةٍ، وانتظمت في مدار تاريخ الخلاص، بقسطٍ رفيعٍ من الوعي والمسؤوليّة، بحيث عاد الملاك جبرائيل إلى السماء، حاملاً بشرى لا تتدنّى فرحًا عن تلك التي جاء بها إلى الأرض. وربّما ليس خطأً أن يُطلق على الفصل الأوّل من إنجيل لوقا عنوان «بشرى الملاك للربّ» عوضًا عن «بشرى الملاك لمريم».

فيا مريم القدّيسة، أيّتها المرأة المطيعة، التي نالت نعمة السير في حضور الله، هبينا، نحن أيضًا، القدرة على نشدان وجهه.

وساعدينا على إدراك أنّنا لن نجد السلام إلاّ في إرادته. وحتّى عندما هو يحضّنا على القفز في الظلام من أجل اللحاق به، حرّرينا من دُوار الفراغ، ورسّخي فينا اليقين بأنّ من يطيع الربّ لا يتحطّم على الحضيض، بل يقع دائمًا بين ذراعي الآب السماويّ.

ويا مريم القدّيسة، أيّتها المرأة المطيعة، أنت تعلمين أنّنا لن نعثر على وجه الله، على هذه الأرض، إلاّ من خلال وجوهٍ بشريّةٍ عديدةٍ، وأنّ أقواله لن تنفذ إلينا إلاّ من خلال انعكاسات مفرداتنا الأرضيّة الوضيعة. فهبينا عيون الإيمان، لكي تتجسّد طاعتنا في الحياة اليوميّة، من خلال تحاورنا مع أشخاصٍ زائلين، اختارهم هو علامةً لإرادته الأبديّة.

وقينا، أيضًا، من المُتَع السهلة المنال، ومن التسويات الرخيصة التي تحول دون ترقّينا إليك. فربّما مازالت غرائز عبادة الأصنام كامنةً في قلوبنا، فنخلط بين الطاعة الإنجيليّة، والاستزلام الممالق، بين الفضيلة المرهفة، والنفعيّة الخسيسة.

ويا مريم القدّيسة، أيّتها المرأة المطيعة، إنّك، حرصًا على إنقاذ ابنك، تواريتِ عن أوامر الطغاة؛ وبفرارك إلى مصر، غدوتِ إيقونة المقاومة السلبيّة، والعصيان المدنيّ؛ فهبينا فخر الاعتراض كلّما أوحى لنا وجداننا بواجب الخضوع لله، وعصيان البشر.

ولكيلا نفتقر إلى إلهامك، عندما نواجه خيارًا صعبًا، اسمحي لنا أن نتوسّل إليكِ، أقلّه في تلك اللحظات: «يا مريم القدّيسة، أيّتها المرأة المطيعة، صلّي من أجلنا»!

١٩ – مريم، امرأة الخدمة

قد يرى البعض، في هذه التسمية، تدنيسًا لكرامة العذراء، وحطًّا من قدرها. ولكنّ مريم نفسها هي التي اختارت هذه التسمية، ومرَّتين، في الإنجيل، وصفت نفسها بالأَمَة. المرّة الأولى، عندما ردّت على سلام الملاك، وقدّمت له بطاقتها: «إنّي أَمَة الربّ»، ومرّةً أُخرى، في بيت إليصابات، حيث هتفت: «تعظّم نفسي الربّ... لأنّه نظر إلى حقارة أَمَته».

إنّها تحمل هذه التسمية، ولكأنّها وسام شرفٍ، وعلى غرارها، سمعان الشيخ الوَرِع، بعد أن أَخذ يسوع الطفل بين ذراعيه، هتف متهلّلاً: «الآن، أيّها السيّد، تطلق عبدك بسلامٍ».

وبصفتها هذه، خاطبت مريم خَدَم عرس قانا، مخاطبةَ الزملاء. وجعلت من قولها لهم نبراسًا لكلّ مؤمنٍ، في كلّ عهدٍ: «افعلوا ما يقول لكم»، ولكأنّها ترغب في أن ننتظم، جميعنا، في هذه النقابة.

وبصفتها هذه، أيضًا، هي جديرةٌ بأن تكون شفيعة جميع من يخدمون، أيّةً كانت، وأينما كانت الخدمة. ولكنّ الكنيسة قلّما تستشفع بمريم، بصفتها هذه، ولكأنّ خدمة العذراء القدسيّة ليست سوى نظريّةٍ لا تشبع تطلّعاتنا، وليست مبدأً فاعلاً يضفي على وجودنا همّةً وعزيمةً.

فيا مريم القدّيسة، يا أَمَة الربّ، لقد وهبتِه كلّ ذاتك، جسدًا وروحًا، ودخلت بيته لتكوني خادمة عمل الخلاص. وقد أَقحَمَتك نعمته في حميميّة الثالوث، وجعلتك مستودع النجاوى الإلهيّة، وخادمة الملكوت. فلم ترَيْ في الخدمة انتقاصًا من حرّيّتك، بل انتسابًا نهائيًّا إلى سلالة اللّه. فنرجوك أَن تتقبّلينا في مدرسة خدمة الهيكل الدائمة التي مارستِها بامتيازٍ.

إنّنا، على نقيضكِ، نجد، في التابعيّة للّه، مشقّةً، ويتعذّر علينا إدراك

أنّ،وحده، التسليم لسيادته، بلا شروطٍ، يؤهّلنا لفهم المبادئ الأساسيّة لكلّ خدمةٍ بشريّةٍ. إنّ إيداع ذواتنا بين يديه يبدو لنا مقامرةً، والخضوع له يبدو لنا ضربًا من العبوديّة، وكان الأوْلى بنا أن ندخله في سياق معاهدةٍ متبادَلةٍ. إنّنا حريصون على استقلاليّتنا، ويتعذّر علينا الاقتناع بأنّ إعلان «خدمة اللّه» يعني السيادة.

فيا مريم القدّيسة، يا خادمة الكلمة، أنت لم تكتفي بالإصغاء إليها، والحفاظ عليها، بل رحّبتِ بها، متجسّدةً في يسوع، فساعدينا على إقامة يسوع في مركز حياتنا، مختبرين إيحاءاته السرّيّة، ومخلصين لها حتّى النهاية. ولتكن لنا طوبى أولئك الخدَم الذين سيجدهم ما زالوا ساهرين، عندما يعود في عزّ الليل، فيدعوهم إلى مائدته، ويتّزر كي يخدمهم.

ساعدينا على جعل الإنجيل مصدر وحيٍ لكلّ خياراتنا اليوميّة، واحمينا من النزوع إلى الانتقاص من مقتضياته الكبرى، وأهّلينا للطاعة الفرِحة. وأخيرًا، زوّدينا بأجنحةٍ لكي نؤدّي للكلمة خدمةً رسوليّةً، فنعلنها حتّى أقاصي تخوم الأرض.

يا مريم القدّيسة، يا خادمة العالم، إنّك، بعد أن أعلنتِ ذاتكِ أَمَة اللّه، هرعتِ إلى خدمة إليصابات. فزوّدي خطواتنا بالسرعة واللهفة اللّتين حمَلتاكِ إلى عين كارم، فغدَت تلك القرية رمزًا للعالم الذي يتوجّب على الكنيسة خدمته. وأعيدي لخدمتنا صفاء المجّانيّة، الذي غالبًا ما تلوّثه شوائب الاستعباد. ولا تسمحي، أبدًا، بأن تغشى مذابحنا ظلال السلطة.

وأنت التي خبرت هواجس الفقراء، ساعدينا كي نقف حياتنا على خدمتهم، بمبادراتٍ مكتومةٍ صامتةٍ، بعيدًا عن الصخب الإعلاميّ الذي يثيره، من حولهم، الراغبون في الظهور. واجعلينا نعي أنّ الملك السماويّ يتوارى خلف مظاهر القوم المرهقين والمسحوقين. أشرعي قلوبنا على آلام إخوتنا. ولكي نتأهّل لاستبيان حاجاتهم هبينا عيونًا مفعمةً حنانًا ورجاءً، شبيهةً بعينيك في قانا الجليل.

٢٠ – مريم، المرأة الحقّة

عالمنا زاخرٌ بنساءٍ سُلِبْنَ أُنوثتهنّ، وبأُخرياتٍ دائباتٍ على امتهانها، وهدرها بأيديهنّ.

ثمّة نساءٌ يعانين ويلات الحروب والثكل؛ ونساءٌ يُسَمْنَ الذلّ والهوان، واستعباد الذكور؛ ونساءٌ يتضوّرنَ جوعًا، ويحترقنَ حرمانًا وإملاقًا؛ ونساءٌ دفعتهنّ الحاجة، أكثر من الفجور، إلى بيع أَجسادهنّ.

كثيراتٌ هنّ اللواتي يغلّفنَ الإحباط والمرارة برقّةٍ ظاهرةٍ، ويموّهنَ المذلّة بالاستسلام، ويحجبنَ أَسى الدموع بابتساماتٍ مصطنعةٍ.

ومنهنّ من يتوهَّمنَ أَنّ التّحرر من كلّ قيدٍ يوفّر لهنّ الحريّة. ولكنّها، غالبًا، حرّيّةٌ زائفةٌ تخفي خيباتٍ مريرةً.

وكم منهنّ، حتّى وهنّ يسلكنَ سلوكًا يناقض نهج العذراء، يبتهلنَ إِليها، ويلتمسنَ شفاعتها، ويقبّلن إِيقونتها، توّاقاتٍ إِلى مثال طهرها.

بعضهنّ يترسّمنَ فيها صورة آلامهنّ، وبعضهنّ يرين فيها نموذجًا للكرامة التي يتطلّعنَ إِليها، وللتحرّر من كلّ ضروب العبوديّات.

فيا مريم القدّيسة، أَيّتها المرأة الحقّة، يا إِيقونة العالم النسائيّ،

مذْ طُعِنَ قلبُكِ في الجلجلة، ما من دمعةٍ تجهلينها، ولا من وحدة أَرملةٍ ثكلى لم تخبريها.... الجند جرّدوا يسوع من ثيابه، والأَلم جرّدكِ من كلّ امتيازاتك، فلم يجد ابنكِ الوحيد، وهو يحتضر، ما يدعوكِ به سوى: «يا امرأة»!

لقد وقفتِ، صامدةً، عند أَقدام الصليب، صورةً حيّةً للحرّيّة، فاجعلي جميع نساء العالم، عندما ينقضّ عليهنّ طوفان الآلام والرزايا من كلّ

لونٍ، يستوحين مثال شهامتك، بحيث، وإن هنّ حنينَ رؤوسهنّ، إلاّ أنّهنّ يأبين حَنيَ ظهورهنّ...

وفي عالمنا الذي فقد ملحه، حيث طغى العقل على الحدْس، والحساب على الإبداع، والسلطة على الرقّة، وصلابة العضلات على عذوبة النظرة المُقنعة، أنتِ لستِ صورة المرأة الجديدة فحسب، بل أيضًا، صورة الإنسانيّة الجديدة المتحرّرة من سراب التحرّر الزائف.

فشكرًا لله الذي جعل منكِ أداة أنسنة الإنسانيّة.

٢١ – مريم، امرأةٌ من الشعب

في زمن مريم، لم يكن سواد الشعب يسبح في البحبوحة، ولم يكن يعرف للبذخ طعمًا. ولكنّه كان أقلّ فاقةً وحرمانًا من سكّان قرى الصفيح التي تحيق بمدننا الكبرى، اليوم، مثل زنّار بؤسٍ، يجأر بإدانة الظلم، وبالفوارق السحيقة بين متخَمين وجياعٍ.

كان الشعب بسيطًا، يجهد، ويكدّ، ويرتضي بما يُقسَم له، واثقًا في رعاية العليّ. من أحضان هذا الشعب، ومن قريةٍ وضيعةٍ مُغفلةٍ، لا تكاد تُذكَر إلاّ لكي تؤخذ عليها ضآلة شأنها، بحيث قيل: «أَمِن الناصرة يمكن أن يخرج شيءٌ صالحٌ؟»، اختار الله مريم، واتّخذها لابنه أُمًّا بين البشر.

امرأةٌ من عامّة الشعب، تمثّلت ثقافته، ولغته، ومزاميره، وتمرّست من عادة الصمت، ودمغة الفقر.

عندما كان يُتاح لها الحجّ إلى المدينة المقدّسة، كانت تذوب وسط القافلة اللجبة، وتدع ابنها، مع معرفتها لفرادته، ومنشئه، وولادته العجيبة، ينخرط في عباب الجموع. وذات مرّةٍ، في طريق العودة، تبيّنت غيابه، في مساء المرحلة الأولى، ظنًّا منها بأنّه كان مع أترابه، لأنّها لم تشأ، يومًا، أن تراه متميّزًا عن رفاقه، إلاّ بنصاعة الخلق، واستقامة السلوك.

وقد رسم الإنجيليّ مرقس لوحةً أخّاذةً تظهر طبيعة مريم، ودعوتها، وشعبيّتها. فقد جاءت، يومًا، برفقة نفرٍ من الأقرباء، إلى كفرناحوم، حيث كان يسوع يتحدّث إلى حشدٍ من القوم الذين افترشوا الحضيض، وذهلوا عن كلّ شيءٍ، وهم مأخوذون بسحر أقواله؛ وإذ تعذّر عليها الوصول إليه من جرّاء كثافة الحشد، أنفذت من ينبئه بمجيئها. وحينئذٍ،

أَجال نظره في الشعب المحتشد أمامه، وأَشار إِليه بيده، وقال: «هذه هي أُمّي». هذه الإِشارة قد تبدو، للوهلة الأولى، تعبيرًا عن عدم اكتراثه بأُمّه، غير أَنّ المراقب المتأنّي يرى أَنّ يسوع، بإِجرائه مماهاةً بين الشعب وأُمّه، قد نصب لها، لامرأة الشعب الأولى، أَروع تمثالٍ.

فيا مريم القدّيسة، يا امرأة الشعب، شكرًا لأَنّك عشتِ مع أَفراد الشعب البسيط، قبل بشارة الملاك وبعدها، ولم تقتضي من الملاك جبرائيل أَن يُقيم، أمام بيتك، حراسةً دائمَة. شكرًا لكِ، فمع معرفتكِ بأَنّك أُمّ اللّه، لم تختلي في قصر أرستقراطيّةٍ روحيّةٍ، بل حرصت على معاناة كلّ ما تعانيه نساء الناصرة من فقرٍ وأَلمٍ.

شكرًا، لأَنّك، في أَيّام الصيف الحارقة، كنت تنضمّين إلى النساء الفقيرات، من أَجل التقاط ما خلّفه، وراءَهم، الحصّادون، من سنابل، وما خلّفه القطّافون من عناقيدَ وثمارٍ، ولأَنّكِ، في أَماسي الشتاء، عندما كان هزيم الرعود يدوّي، ويهزّ بيوت الناصرة، كنتِ تفزعين الى بيوت جاراتكِ كي تبدّدي خوفكِ وخوفهنّ.

شكرًا، لأَنّكِ كلّما زار الموت أَحد بيوت الناصرة، كنتِ في طليعة المعزّيات، تبلّلين بالدموع الغزيرة منديلك. وفي الأَفراح كنت تصعدين إلى سطح بيتكِ كي ترشّي الورود والقمح على موكب العروسين

يا مريم القدّيسة، يا امرأةً من الشعب، نحن اليوم، أَكثر من أَيّ يومٍ مضى، بحاجةٍ إِليكِ. إِنّنا نخوض أَيّامًا عصيبةً، حيث حلّت الفئويّة محلّ الروح الجماعيّ، وحلّت إِيديولوجيّات العنصريّة، والوطنيّة المتطرّفة، محلّ توجّهات التاريخ الكونيّة، وأُوليت مصالح الأَحزاب الأَولويّة على الصالح العامّ..

فساعدينا على ترسيخ الوعي الشعبيّ المتهاوي، وعلى تقديم شهادةٍ قويّةٍ لشعب اللّه، شهادة مشاركةٍ وتضامنٍ، ترشد العالم إلى سبُل التقدّم. وقفي إلى جانبنا في أَداء هذه المهمّة الصعبة.

ويا مريم القدّيسة، يا امرأةً من الشعب، علّمينا أَن نشارك الناس أَفراحهم وآمالهم، وأَن نقتسم معهم الأَحزان والهواجس التي تواكب دروب حضارتنا. واجعلينا نستسيغ الإِقامة بين أَفراد الشعب، مثلما أَقمتِ، أَنتِ، بين التلاميذ في العلّيّة. وحرّرينا من ادّعاء الاكتفاء بذواتنا، وأَقصي عنّا مُغرَيات الانعزال.

أَعيدي العدل لمن سحقهم الفقر، وأَعيدي السلام إلى القلوب التي أَشاعت فيها البحبوحةُ البلادةَ. أَلهمي الأَوّلين عزّة النفس، وأَلهمي الآخرين العطف. وأَعيدي إلى جميعهم فرح الحياة، عساهم يُنشدون، معًا، مزامير الحرّيّة.

٢٢ – مريم، امرأة المشاعر العميقة

يحاول البعض إظهار مريم، وكأَنّ قلبها خوى من المشاعر التي تختلج بها قلوب النساء: الهوى، والاندفاع، والحرارة الإنسانيّة. إنّهم يصوّرونها وقد شوّهت التضحياتُ والأصوامُ جسدَها، فماتت أحاسيسه، وبات عاجزًا عن الإنشاد والطرب.

ولكنّ نشيد العذراء الذي استهلّته بقولها: «تعظّم نفسي الربّ، وتبتهج روحي باللّه مخلّصي»، يُظهر قلبًا يتدفّق اندفاعًا، جسدًا يضجّ فرحًا وشكرًا، وربّما يرقص على إيقاع النشيد.

إنّ محاولة إظهار نفس مريم كتيمةً دون تسرّب المشاعر الإنسانيّة، تجرّدها من الأَلم، ومن المشاركة في مأساة الفداء، رغم السيوف السبعة التي انغمست في قلبها، وتقصيها عن مسرح يوم الجمعة العظيم.

فيا مريم القدّيسة، لقد رقصتِ عندما كانت مشاعرك تدفعك إلى الرقص؛ وتجرعّتِ كأس الآلام حتّى الثمالة. فساعدينا على إدراك أَنّ الأَلم ليس غاية مطاف البشر، وأَنّه ليس سوى عتبةٍ لا بدّ من اجتيازها كي نتخفّف من أَمتعتنا، إذ يتعذّر علينا الرقص، عندما تثقل الأَمتعة أَيدينا.

لسنا نطلب منكِ مخدّرًا، ولا إعفاءً من ضريبة المرارة. ولكن، عندما تجتاح أَنفسَنا المِحَنُ، احمينا من دموع القنوط. وإذ نتوسّل إليك أَن تقفي إلى جانبنا، في ساعة موتنا الجسديّ، فلعلمنا بأَنّكِ خبرتِ محنة الموت، لا موتكِ أَنتِ الذي لم يدم سوى لحظاتٍ قبل انطلاقك إلى السماء، بل موت ابنكِ العنيف، اللامعقول.

فإن وقفتِ إلى جانبنا، لما خيّم حولنا الظلام الذي تكاثف حول صليب

ابنكِ، إذ، بوجودكِ، يتألّق النور، وتكسو الزهورُ أبشعَ آلة عذابٍ، مثلما تكسو الأشجار في الربيع.

ذكّرينا أنّ الاحتفال بالعيد هو هدف الإنسان الأخير.

فضاعفي مخزون قلوبنا من الجرأة والحبّ، واملأي مصابيح نفوسنا بزيت الرجاء. ورغم خواء أيّامنا، غالبًا، من السعادة، لا تَدَعينا نكفّ عن أن ننتظر، بإيمانٍ، من سيأتي لكي يحوّل الأنين رقصًا، ويستبدل ثوب الوبر الشظِف بثوب الفرح.

٢٣ – مريم، امرأة السبت المقدّس

غالبًا ما يراود المؤمنَ، في ذلك اليوم، أنّ الحواجز المحيقة بالحاضر تتهاوى فجأةً، وأنّ النفس تتّسع وتمتدّ في مساحات الذكرى الكمينة، أو إنّها تنطلق إلى الأمام، ملامسةً شواطئ الأبديّة، مسترقةً بعض أسرارها، ولكأنّها دفعاتٌ على حساب السعادة المنتظرة.

كيف يمكن تفسير هذا الشعور المُبهَم بالسلام الذي يتدفّق من المستقبل، يومَ السبت المقدّس؟ وكيف يمكن تأويل ذلك الشعور الذي يطرح أسئلةً غريبةً يجد المرء نفسه مستعدًّا للإجابة عليها إجابةً فرِحةً؟

فهل ستتوالى الأيّام التي لن يكفّ، فيها، البشرُ عن تبادل التحيّات والبسمات، أيّامٌ محرّرةٌ من تأثير الدموع المدمّر، أيّامُ مجّانيّةٍ مُطلقةٍ، لن نخلع، فيها، ثياب العيد؟

في ذلك اليوم، يُخَيَّل إلينا أنّ نباتات الحديقة تضوّع كلّ شذاها، مثل مباخرَ فضّيّةٍ، وأنّ أمواج البحر التي تتحطّم على صخور الشواطئ، ترتّل للقيامة، وأنّ القبور تختلج تحت أشعّة القمر الصافية، وأنّ الجبال المتوارية عن عيون البشر ترقص، جذَلاً، فوق الوديان.

ولا بدعَ في ذلك، فالسبت المقدّس يؤرجح الحاضر بين الماضي والمستقبل، لأنّ سيّدة ذلك اليوم الفريد هي مريم، وإن اعتصمت بالصمت.

فبعد أن سُجّي يسوع في لحده، بقيت مريم، وحدها، تحرس الإيمان على الأرض. ريح الجلجلة أطفأت كلّ الأنوار، ولكنّ مصباحها، وحده، ظلّ مُضاءً. وطيلة يوم ذلك السبت، بقيت مريم هي بؤرة النور الوحيدة،

التي اقتبست منها حرائق الماضي ومواقد المستقبل نارَها. في ذلك اليوم ذرعت مريم الدروب، ومصباحها في يدها، فإن هي رفعته إلى جانبٍ استنهضت من ليل الأَزمان ذكريات قداسةٍ، وإن رفعته إلى الجانب الآخر، استقدمت، من ديار الأَبديّة، انعكاسات تجلّياتٍ وشيكةٍ.

يا مريم القدّيسة، يا امرأة السبت المقدّس، أيّها الخليج الذي تجمّع فيه، ولو مدى يومٍ واحدٍ، إيمان الكنيسة جمعاء، إنّكِ نقطة الاتّصال القصوى مع السماء، التي وقَت الأَرض من تعتيم النعمة الكلّيّ والمأساويّ. فخذي بيدنا، وقودينا إلى عتبات النور الذي يستمدّ من الفصح وهجه.

ثبّتي، في خَلَدنا، عذوبة الذكريات الشاردة، لكي نكتشف، في طوايا أَطلال الماضي، خيرَ ما فينا. أَيقظي في قلبنا، من خلال إشارات المستقبل، توقًا جمًّا إلى التجدّد، يُترجم التزامًا حازمًا بالسير على دروب التاريخ.

ويا مريم القدّيسة، يا امرأة السبت المقدّس، ساعدينا على إدراك أَنّ حياتنا، في الواقع، إن هي سوى أَرجحةٍ بين ضباب الجمعة الحزينة، وتوقّعات يوم أَحد القيامة، وأَنّ يوم السبت هو يوم الرجاء الذي نغسل فيه ثيابنا المبلّلة بالعرق والدم، وننشرها تحت شمس الربيع، علّها تتحوّل أَغطيةً للهيكل.

وبالإجمال، ذكّرينا أَنّ ما من رفعٍ على الصليب لا يليه إنزالٌ عنه، وأَنّ ما من مرارةٍ بشريّةٍ لا تذوب في بسمةٍ، وأَنّ ما من خطيئةٍ لا فداء لها، وأنّ ما من قبرٍ يُختَم حجره نهائيًّا، وأَنّ أَشدّ ثياب الحداد قتامًا قد تصبح ثياب فرحٍ، وأَنّ النغمات الأَخيرة من النشيد الجنائزيّ تتضمّن إيقاعات هلّيلويا الفصح الفرِحة.

ويا مريم القدّيسة، يا امرأة السبت المقدّس، خبّرينا بأيّ اندفاعٍ استعددتِ عند غروب ذلك اليوم، لاستقبال ابنك الناهض من الموت،

وأيّة كلمات حبٍّ أعددتِها وردّدتِها، سرًّا، لكي تقوليها له، دفعةً واحدةً، فور ظهوره لك.

وعلّمينا التأهّب للقائه. أيقظي فينا صبر انتظار عودته، فجرَ الأحد. وزيّنينا بثياب العرس. وريثما تأزف الساعة، ابقي إلى جانبنا، وأنشدي معنا، فالساعات، هنا، تكرّ بطيئةً جدًّا.

٢٤ – مريم، امرأة اليوم الثالث

ليت مريم هي التي تفتح نوافذنا، يوم الفصح، وتتمنّى لنا عيدًا سعيدًا!

كثيرون تساءَلوا لمَ لمْ تأتِ الأَناجيل على ذكر ظهور يسوع لأُمّه، إثر قيامته، في حين هي ذكرت ظهوره لكثيرين سواها.

والجواب يبدو بسيطًا: فذكر هذا الظهور نافلٌ، لأَنّ مريم شهدت القيامة عينها، في حين شهد الآخرون القائم من الموت. مريم كانت الشاهدة الأولى والوحيدة على قيامته، مثلما كانت الشاهدة الوحيدة على تجسّده، وعلى ولادته.

لقد شاركت مريمُ يسوعَ كلّ مغامرة الفداء، ولا يُعقَل ألاّ تكون شاركته لحظة قيامته، وهي اللحظة الأَجلّ شأنًا في تاريخ الخلاص.

«بعد ثلاثة أيّامٍ» وجدته في الهيكل، وهو ابن اثنتي عشرة سنةً، يناقش علماء الشريعة. و«في اليوم الثالث» وافى إلى عرس قانا، حيث سبَّقت أُمّه «ساعته»، فأَظهرت للعالم قدراته الإلهيّة، وجعلت تلاميذه يؤمنون به. فكيف لا تكون شاهدة قيامته «في اليوم الثالث»، يوم أَثبت للورى أُلوهته!

فمريم ليست، كالآخرين، شاهدةً على يسوع القائم من الموت، بل هي أمّ الفصح، وأمّ القيامة!

فيا مريم القدّيسة، يا امرأة اليوم الثالث، أَيقظينا من سباتنا الثقيل، وبشّرينا بالفصح، في عزّ الليل. لا تنتظري انبثاق الفجر، ووصول حاملات الأَطياب، بل تعالي قبل الجميع، وبشّرينا من خلال انعكاسات

مجد القائم من الموت في عينيك، وشذى شهادة العيان للقيامة. إنّك الشاهدة الوحيدة على صراع الحياة والموت، فأنت، وحدك، كفيلةٌ بإقناعنا أَنّ ابنك كسر شوكة الموت، وأَنّ الشرّير دُحر مهزومًا، فقد رأيت الشرّ والموت مجندَلَيْن على الحضيض، أَمام قدمَي ابنك.

يا مريم القدّيسة، يا امرأة اليوم الثالث، رسّخي فينا اليقين بأَنّ الموت لن ينال منّا، رغم كلّ شيءٍ، وأَنّ أَيّام الشعوب معدوداتٌ، وأَنّ نيران الحروب صائرةٌ إلى خمود، وأَنّ معاناة الفقراء باتت في طور حشرجة الموت، وأَنّ الجوع، والعنصريّة، والمخدّرات، هي الأَرصدة المدوَّرة من ميزانيّات الإفلاس؛ وأَنّ دموع جميع ضحايا العنف والألم ستجفّ، مثلما يجفّ الندى تحت أَشعّة شمس الربيع.

يا مريم القدّيسة، يا امرأة اليوم الثالث، انتزعي عن وجهنا كفن القنوط، وأَخفي، إلى الأَبد، في زاويةٍ قصيّةٍ خفيّةٍ، رباطات خطايانا.

ورغم البطالة، والتشرّد، والجوع، شدّدي قوانا بخمرة الفرح الجديدة، وبخبز التضامن.

هبينا شيئًا من السلام. ولا تسمحي بأَن نبلّل لقمة الخيانة في طبق الأَعشاب المرّة. ونجّينا من قبلة الجبن، واحمينا من الأَنانيّة. وامنحينا الرجاء بأَنّك، حين ستأزف ساعة التحدّي الحاسمة، ستكونين لنا، مثلما كنت ليسوع، الحَكَم الذي، في اليوم الثالث، سيعلن، أَخيرًا، انتصارنا.

٢٥ – مريم، امرأة المنادمة

لقد وصف كاتبٌ من القرون الوسطى، هو «إلديفونس الطليطليّ»، العذراءَ بأنّها المائدة النفيسة والمرهفة التي يلتئم، حولها، الآب والابن والروح القدس.

لا ريب أنّ لمريم دورًا أساسيًّا في سرّ الثالوث الأقدس، قد يتعذّر علينا تفسيره. إلاّ أنّه من اليسير اكتشاف دور العذراء داخل الجماعة البشريّة، إذ إنّ كلّ جماعةٍ راغبةٍ في عيش الإنجيل تحمل علامةً قدسيّةً، وترمز إلى الجماعة الثالوثيّة، وعليها أن تهتدي بمنطق الثالوث، وأن تحيا روح منادمته، وأن تعبّر عن سرّه.

في السماء أقانيمُ متساويةٌ ومتميّزةٌ تحيا شراكةً تجعل منها إلهًا واحدًا. وعلى الأرض يتعيّن على عدّة أشخاصٍ متساوين ومتميّزين أن يحيوا جماعةً تكوّن إنسانًا واحدًا، الإنسان الجديد، يسوع المسيح.

وعلى كلّ جماعةٍ كنسيّةٍ الاضطلاع بمهمّة تمثيل إيقونة الثالوث، وأن تكون موقعًا للعلاقات الحقيقيّة، حيث وجوه الأفراد معروفةٌ، وحيث يُسعى إلى تحقيق المساواة.

وإن كانت مريم تحاكي مائدةً نفيسةً يجلس حولها الأقانيم الإلهيّة، أفليس من المحقَّق أنّها تلعب دورًا رئيسًا داخل الجماعات المكلّفة برسالةٍ مقدّسةٍ، وأنّ كلّ محاولة مشاركةٍ، بمعزلٍ عنها، محكومٌ عليها بالفشل؟

إنّ مريم هي العنصر الجوهريّ في كلّ شراكةٍ، ولا سيّما في الكنيسة. فهي المائدة التي يلتمّ حولها شمل الأُسرة، بدعوةٍ من كلام الله، من أجل اقتسام خبز السماء.

فيا مريم القدّيسة، يا امرأة المنادمة، اجعلينا نَخْبَر قوّة حضورك الأموميّ الموحِّد. وساعدي المؤمنين على تجاوز انقساماتهم الداخليّة. وتدخّلي لمنع شيطان الفرقة من الاندساس بينهم. أَطفئي بُؤَر الفِتَن؛ صالحي المتخاصمين، وأفهميهم أنّه لا يحسن بهم أن يعمل كلٌّ منهم لحسابه الخاصّ، عازفًا عن الاندماج في المصلحة العامّة. ورسّخي في يقينهم أنّه كلّما فُصِمت عرى التضامن، مُنيت مصالح البيت الشامل بالضرر. فعلى الجماعات المسيحيّة أن تكون مراكز توزيع خيراتٍ جماعيّةٍ، لا تبلغ ملء نضجها إلاّ في البيت الثالوثيّ.

وحطّي نظرة عطفٍ على الأُسَر التي تعاني مصاعب، والتي وقعت ضحايا عواصف زماننا، وغرقت في عبابها. كثيراتٌ منها تواجه أَزمة تواصلٍ، وتنساق مع التيّار بلا هدىً. وعندما تتبيّنين أنّ صورتك معلّقةٌ فوق سريرٍ زوجيٍّ اعتراه الصمت، أخرجي من إطار صورتك البارد، وادعي الزوجين إلى مائدةٍ ترأَسينها، ولّي شتات حبّهما القديم، وأَيقظي أَحلامهما السالفة، وأَضرمي آمالهما المفقودة، وأَفهميهما أنّ البدء من جديدٍ ممكنٌ أَبدًا.

ونتوسّل إليك، أَخيرًا، من أَجل شعوب الأَرض التي تمزّقها الأَحقاد، وتفرّقها المصالح. أَيقظي فيهم التوق إلى المائدة الواحدة، حيثُ، بعد دفن المطامع، وإخماد صيحات الحرب، يتناولون معًا، مثل إخوةٍ، خبز العدل متخطّين تنوّع الألسن، والأَجناس، والثقافات، مستعيدين، من حولك، العيش بسلامٍ. وحينئذٍ ستتألّق فرحًا عيناك اللّتان خبرتا، على الأَرض، تعايش الخلافات، وشاهدتا، في السماء، الشراكة الثالوثيّة.

٢٦ – مريم، امرأة العلّيّة

الإيقونة صورةٌ مرسومةٌ على خشبٍ، يحيطها المؤمنون الشرقيّون بتكريمٍ فريدٍ. إنّها مغلّفةٌ بالنور، وتنطوي على قبسٍ من السرّ الإلهيّ. ولذلك وُصفتْ بأنّها نوافذ الزمن المشرعة على الأبديّة.

الفصل الأوّل من سفر أعمال الرسل ينطوي على واحدةٍ من تلك الإيقونات، ذات جمالٍ أخّاذٍ، تظهر التلاميذ، إثر صعود يسوع، ملتئمين في العلّيّة التي كانوا يقيمون فيها، ومعهم مريم، أُمّ يسوع.

بعد هذا المشهد الأخير، توارت مريم عن الأضواء، مخلّفةً لنا صورتها في موقعٍ عالٍ، ولكأنّها تشير إلى المستوى الرفيع الذي ينبغي أن يندرج فيه مصير كلّ مسيحيٍّ. وفي الواقع، لقد نمت حياة مريم، كلّها، في مرتفعاتٍ شاهقاتٍ.

غير أنّها، في حياتها اليوميّة، لم تزدرِ وضاعة حياة الفقراء، ولم تتنكّر لها. فقد كانت نساءُ الرعاة يقايضنَها الصوفَ والجبنَ واللبنَ، بثوبٍ أو بغطاءٍ حاكته بيدَيْها. ولم يخطر ببال جاراتها، يومًا، أنّ حياتها المغرقة في البساطة، كانت تغلّف سرًّا إلهيًّا. وهي لم تحاول، قطّ، ما يحاوله بعض الذين أصابوا حظوةً أو نجاحًا، فيترفّعون عن رفاقهم القدامى، ويُشعرونهم بالتفوّق عليهم. فقد كانت مريم ترافق جاراتها إلى السوق، وتساوم مثلما يساومنَ، وتشترك معهنّ، في أعقاب الأمطار الغزيرة، في إقامة سدودٍ طينيّةٍ، لدرء السيول عن المنازل...

وبالإجمال، مع وعيها لمصيرها الفذّ، لم تتسلّق، يومًا، عرش مجدٍ، وأبت كلّ امتيازٍ من شأنه إقصاؤها عن فرح العيش، وسط عامّة الشعب.

إلاّ أنّها، مع ذلك، احتفظت لنفسها بمرقبٍ رفيعٍ يمكّنها من تأمّل، لا

غاية مغامرتها البشريّة فحسب، بل أيضًا، أبعاد عطف الله القصيّة. ويتجلّى تساميها هذا، خاصّةً، من خلال موقفَيْن: نشيد تسبيحها في بيت إليصابات، ووقوفها في مذبح الجلجلة.

من ذلك العلوّ امتدّت أبصارها حتّى تخوم الزمن القصوى، وبلحظها امتداد رحمة الله من جيلٍ إلى جيلٍ، قدّمت لنا القراءة الأكثر اكتمالاً لتاريخ الخلاص. ومن مذبح الجلجلة غاصت أبصارها حتّى أقاصي المدى، ضامّةً الكون كلّه بنظرةٍ واحدةٍ، موفّرةً لنا الضمانة الأكيدة بأنّ أصغر الزوايا التي تلامسها نظراتها الأموميّة، سينسكب عليها الروح المتفجّر من جنب يسوع.

فيا مريم القدّيسة، يا امرأة العلّيّة، يا إيقونة الكنيسة السَنيّة، كنت قد حييتِ عَنصرتَكِ، لمّا بشّرك الملاك، فحلّ الروح القدس عليك، وألقى العليّ عليك ظلّه. ومن ثمّ، لم يكن مكوثك في العلّيّة، إلاّ لكي تلتمسي للمحيطين بكِ النعمة عينها التي كانت قد أغنت نفسك، ذات يومٍ، في الناصرة. وبذلك غدوت للكنيسة قدوةً. فهي، إذ يتملّكها الروح، يتعيّن عليها التماس اقتحام الله لكلّ جوارح العالم، حتّى آخر الدهور.

هبي الكنيسة نشوة المرتفعات، وصبر الأمد البعيد، ومنطق الحكم الجماعيّ، وسداد الرؤية؛ واحميها من الاختناق في حمأة السياسات القصيرة الأمد، ومن كآبة الغوص، بلا أملٍ بالنجاة، في نطاق رمال الأحداث اليوميّة المتحرّكة، واجعليها تراقب التاريخ برؤى الملكوت، إذ إنّها، فقط عندما تتأهّل للنظر من خلال نوافذ البرج المطلّة على مشاهد فسيحة، سيكون بوسعها التواطؤ مع الروح القدس، من أجل تجديد وجه الله.

ويا مريم القدّيسة، يا امرأة العلّيّة، ساعدي رعاة الكنيسة على الإقامة في مناطق الروح المرتفعة، حيث يمسي الصفح عن أوهان البشر سهلاً، والحكم على نزوات القلب أوفر تسامحًا، والاعتصام برجاء القيامة أعمق

تلقائيّةً. وارتقي بهم فوق الأَنظمة، إذ لا بدّ من التسامي من أَجل التقاط الرغبة في التحرّر المبثوثة في ثنايا موادّ القانون. وحولي دون كونهم حرّاسًا متصلّبين لفروض الطقوس، التي تغزوها الكآبة، حتمًا، عندما لا يُستبان حبر الحبّ الأَحمر الذي به دُوّنت.

ليّني فكرهم لكي يقووا على تجاوز برودة قوانين خاوية من المحبّة، ومشاريع خاوية من الهوى، وطقوسٍ خاويةٍ من الاستنارة، وإِجراءاتٍ خاويةٍ من الإِبداع، وأَقوالٍ خاويةٍ من الحكمة. ادعيهم إلى التسامي معك، فمن العلوّ، فقط، ستستطيع أَنظارهم الامتداد إلى أَقاصي تخوم الأَرض، وقياس مدى المياه التي يعود الروح القدس، اليوم، كي يرفرف فوقها.

ويا مريم القدّيسة، يا امرأة العلّيّة، دعينا نتأَمّل، من نافذتك، أَسرار الحياة الفرِحة، والأَليمة، والمجيدة : الفرح، والنصر، والصحّة، والمرض، والأَلم، والموت. فيا للعجب: فقط من ذلك العلوّ لا يُحدِث النجاحُ الدُّوارَ، ولا تدفعنا الهزائم إلى الارتماء في الفراغ.

وعندما نتّكئ على نافذتك، سيتيسّر لنا الاستسلام لريح الروح المنعشة، والتمتّع بمواهب الروح السبع، فتُشبَع أَيّامنا بالحكمة، وندرك أَين تقودنا دروب الحياة، فنوطّن العزم على اقتحامها بقوّةٍ، متبصّرين ما تخبّئه الطريق من فخاخٍ، ومتبيّنين مواكبة الله لمن يسير بتقوًى، متأَهّبين للسير بفرحٍ، في خوفه المقدّس.

وبذلك، على غرارك، سنسرّع عنصرة العالم.

٢٧ – مريم، المرأة الكلّيّة البهاء

لم يَبُحْ الإنجيل بكلمةٍ واحدةٍ في وصف وجه مريم، مثلما أَمسك عن وصف وجه يسوع. وربّما كان ذلك خيرًا، إذ بات بوسع كلٍّ منّا أَن يأمل بسماع ملاكٍ يقول له، يومًا: «أَتعلم أَنّك شديد الشبَه بأمّك وبأَخيك؟».

على أَيّة حالٍ، لا ريب أَنّ مريم كانت فائقة الجمال. ولست أتكلّم، فقط، عن جمال نفسها التي نُزّهت من كلّ أَثرٍ لخطيئةٍ، وكانت من الجمال بحيث رأى الله فيها ذاته؛ بل إنّي أتكلّم، أَيضًا، عن جمال جسدها الأُنثويّ الذي تحاشى اللاهوت عن البحث فيه، وترك الأَمر للشعراء، فأَنشدوا: «أَيّتها العذراء البهيّة، اللابسة الشمس، والمكلّلة بالنجوم. لقد أُعجبت بك الشمس السماويّة، بحيث أَخفت فيك نورها».

وأَنشد القوم المتواضعون: «يا جميلةً مثل زنبقةٍ...».

أَجل، إنّكِ كلّيّة البهاء، يا مريم، إنّك رائعة النفس والجسد!

لقد أَمسك اللاهوت عن ذكر جمال مريم البشريّ، ربّما عن خفرٍ، أَو إيمانًا منه بأَنّه وفّاها حقّها من المديح عندما ألمح إلى فتنتها الفائقة الطبيعة.

ومع ذلك، نعثر، في الإنجيل، على كلمةٍ يونانيّةٍ، في سياق بشارة الملاك لها، تُرجمت «الممتلئة نعمةً»، ويسوغ ترجمتها، أَيضًا: «الكلّيّة البهاء».

وربّما هذا ما حدا البابا بولس السادس إلى وصفها، في سياق خطابٍ شهيرٍ له، عام ١٩٧٥، بأَنّها «المرأة المتّشحة بالشمس، التي التقت فيها أَشعّة جمالٍ بشريٍّ فائقة النقاء، بأَشعّة الجمال الفائقة الطبيعة».

فيا مريم القدّيسة، أَيّتها المرأة الكلّيّة البهاء، إنّنا نودّ، من خلالك، أَن

نشكر لله سرّ الجمال الذي نثره في كلّ مكانٍ على الأَرض، على امتداد دربنا، لكي يظلّ التوق الجامح إلى السماء يقِظًا، في قلوبنا، نحن الحجّاج.

لقد جعل الله الجمال يتألّق في جلال القمم المتّشحة بالثلوج، وفي صمت الغابات السحيق، وفي قوّة البحر الجيّاشة، وفي رعشة الأَعشاب العطرة، وفي سكون المساء. إنّ الجمال نعمةٌ ننتشي بها سعادةً؛ وإن هي لم تدُم سوى لحظاتٍ، إلاّ أَنّها تتيح لنا استراق النظر من خلال نوافذ مشرعةٍ على الأَبديّة...

يا مريم القدّيسة، أَيّتها المرأة الكلّيّة البهاء، الرائعة مثل ضوء قمرٍ ربيعيٍّ، صالحينا مع الجَمال. فأَنت تعلمين أَنّه لا يدوم طويلاً بين أَيدينا النَهِمة، وأَنّه يذبل سريعًا، بفعل لمساتنا الشرهة، ويجفّ، فجأةً، بنار لهاث شهواتنا، ولا يلبث أَن يفسد عندما ينشب به شَبَقنا الكمين. وبالإِجمال نحن لا نحسن مداراته، فيتمزّق قلبنا، وينحفر فيه جرحٌ لا يندمل، يجعلنا نجأر أَلـمًا، في حين أَنّ من شأن الجمال أَن يكون إِناءً مترعًا سعادةً تحملنا على الإِنشاد.

فساعدينا على تخطّي التباسات الجسد، وأَنقذينا من سماجة الفكر، وهبينا قلبًا طاهرًا نظير قلبك. وأَعيدي لنا شفافيّة الرغبات النقيّة. وحرّرينا من حزن الاضطرار إلى تحويل أَنظارنا عن مجالي الجمال، خشيةَ أَن تحيد بنا فتنة الزائل عن الدروب المؤدّية إلى عتبات الأَبديّة.

ويا مريم القدّيسة، أَيّتها المرأة الكلّيّة البهاء، أَفهمينا أَنّ الجمال هو الذي سيُنقذ العالم، في حين أَنّ لا قوّة الحقّ، ولا حكمة العلماء، ولا حنكة الدبلوماسيّين، ستكون قادرةً على حمايته من كارثةٍ كونيّةٍ. فاليوم، وأَسفاه، حتّى المراسي التي كانت توفّر للبواخر ملجأً أَمينًا، في ساعات الخطر، أَخذت تنهار، هي نفسها، في طوفان ضياع القِيَم. إِنّنا نعيش، حقًّا، مواسم غروبٍ.

ولكن من صميم هذا الحَلَك الكثيف ينبعث بصيص رجاءٍ. إنّه نور الجمال.

ولذلك، يا مريم العذراء القدّيسة، نحن حريصون على الافتتان ببهائك البشريّ الذي يؤتينا، دائمًا، خيرًا، مثلما نؤخذ بفتنة خلائقَ أَرضيّةٍ تثبت، أحيانًا، أَنّها خدّاعةٌ.

لقد اختبرنا كم يساعدنا تأمّل القداسة على اتّقاء الوقوع في المستنقعات. وإنّما تيقّننا بأَنّ جمال نفسك قد واكبه جمال جسمك، يشيع فينا رجاءً عظيمًا، ويوحي لنا بأَنّ كلّ جمالٍ على الأَرض إِنْ هو إِلاّ بذرةٌ مؤهّلةٌ للازهرار في المشاتل العلويّة.

٢٨ – مريم، المرأة الأَنيقة

البعض يتوسّمون إِشارةً إِلى أَناقة مريم في قول نشيد الأَناشيد: «مَن هذه المشرفة كالصبح، الجميلة كالقمر، المتألّقة كالشمس، المرهوبة مثل جحافل تحت الرايات؟»، أَو في سفر الرؤيا: «ثمّ ظهرت في السماء آيةٌ عظيمةٌ، امرأةٌ ملتحفةٌ بالشمس، وتحت قدميها القمر، وعلى رأسها إِكليلٌ من اثني عشر كوكبًا».

إِن كانت هذه الأَوصاف تشير إِلى أَناقة مريم، فهي تقصد أَناقتها الداخليّة، ولا تعني أَنّ العذراء كانت منضمّةً إِلى نادي المهووسات بالأَزياء الغريبة والباذخة. ولكن من المرجّح أَنّ مريم، في فقرها، وبساطتها، وزهدها، كانت بهيّة الطلعة والهندام، وأَنّها كانت في ذهن يسوع عندما قال: «تأَمّلوا زنابق الحقل... إِنَّ سليمان نفسه، في أَوج مجده، لم يلبس كواحدةٍ منها». ويُرجّح، أَيضًا، أَنّه منها استلهم قوله: «سراج الجسد العين، فإِن كانت عينك صحيحةً، كان جسدك كلّه في النور». فقد كان، حينئذٍ، يُجيل في خاطره النور المتلألئ في مريم، وعينيها المشعّتين بشفافيّة نفسها، واللّتين كانتا تضفيان على أَناقة جسدها كثافةً قدسيّةً.

فيا مريم القدّيسة، أَيّتها المرأة الأَنيقة، أَلهمينا مثل ذوقك، وأَعيرينا بعضًا من الثياب التي زيّنت وجودك الأَرضيّ: العرفان بالجميل، والبساطة، والاعتدال في الكلام، والشفافيّة، والحنان، والدهشة، تلك الثياب التي لا تبلى، والتي يبقى زيّها حديثًا، أَبدًا. قد تكون ثيابك تلك أَكبر من قياسنا، ولكنّنا سنجهد في توفيقها مع قامتنا.

بوحي لنا بسرّ أَناقتك ورقّتك، واحمينا من الإِسفاف الذي يعرّي سوقيّتنا وفظاظتنا، وساعدينا كي نكتشف، في جمال الطبيعة والفنّ، علامات أَناقة اللّه.

ويا مريم القدّيسة، أيّتها المرأة المرهفة، حرّرينا من الفظاظة التي نتّشح بها، رغم أناقة ثيابنا، والتي تتفجّر ألفاظًا عنيفةً حيال الآخرين.

ما أبعدنا عن أناقتك الروحيّة! فقد نرتدي ألبسةً ثمينةً، ولكنّ علاقاتنا الإنسانيّة تفتقر إلى الدماثة. قد ندّهن بطيوبٍ فاخرةٍ، ولكنَّ وجوهنا تقطر إبهامًا. ننظّف أسناننا بعقاقير متطوّرةٍ، بيد أنّ الكلام الذي يخرج من فمنا مبتذَلٌ. فمفرداتنا قد أمست فظّةً، والشتيمة غدت مألوفةً، وبذاءة الكلام باتت تحظى بتقدير المستمعين وإعجابهم.

إجعلينا ندرك أنّنا ما دمنا لا نرى، في من هو قريبٌ منّا، وجهًا علينا اكتشافه، وتأمّله، ومداعبته، فكلّ مظاهر كياستنا ستظلّ شكليّةً، ولن تفلح أفخر ثيابنا في تمويه صغارة نفوسنا.

ويا مريم القدّيسة، أيّتها المرأة الأنيقة، يا من تلقّفت، باهتمامٍ شديدٍ، عبورَ الله في حياتنا، ساعدينا على الإنصات إلى نسيم عبوره الرقيق. فهو، أيضًا، مُغرقٌ في الرهافة، ويأبى التجلّي في قوّة النار، والأعاصير والزلازل، ولكنّه يُسمِع صوتَه من خلال حفيف أوراق الأشجار، وفوْح أريج الأزهار. ولا بدّ من آذانٍ مرهفة السمع من أجل تبيّن وقع أقدامه عندما يزور حدائقنا.

ساعدينا على إدراك رهافة الله في ذلك القول المعبّر عن خَفَره ورقّته، والذي ربّما أمليتِه، أنتِ، على يوحنّا، وهو يدوّن رؤياه: «ها أنا ذا واقفٌ عند الباب، أقرعه؛ فإن سمع أحدٌ صوتي، وفتح الباب، دخلتُ، وتعشّيت معه، وهو معي».

فأهّلينا للردّ على دعوته بمثل رقّة أُسلوبه، فنهبّ، ونفتح له الباب، ونحتفل بقدومه، وندعوه إلى مائدتنا.

وبما أنّه يمكث معنا، فلمَ لا تمكثين، أنتِ أيضًا، وتتعشّين معنا؟

٢٩ – مريم، امرأةٌ معاصرةٌ لأَيّامنا

هكذا نراها: امرأةً تتكلّم بلغتنا، خبيرةً بالتقاليد القديمة، وبالعادات الشعبيّة؛ حسبها اسمان أو ثلاثة كي تكوّن شجرة عائلةٍ، وتجعلنا نكتشف علاقات قربانا.

نراها منهمكةً بهموم بلدها اليوميّة، ترتدي زيّ العصر، ولا تُحرج أَحدًا. تكسب خبزها مثل الجميع؛ ترى فيها كلّ بنتٍ من بنات حوّاء زميلةً لها، أَيًّا كان موسم حياتها. تشارك كلّ جيلٍ اهتماماته، ولكنّها توحي إلى كلّ من ينظر إليها توقًا إلى الطهر. تُسعِد من تتجاذب معهنّ الحديث، فيكافئنَها ببسمةٍ بريئةٍ. تُصغي إلى نجاواهنّ السرّيّة، وتشجّعهنّ على حبّ الحياة. تحمل اسمًا من أَسمائنا الشائعة، وتذكّرنا بطالبةٍ في معهدنا، أو بعاملةٍ في مصنعنا، أو بموظّفةٍ في شركةٍ مجاورةٍ لنا، أو ببائعةٍ في حيّنا.

نراها تتوقّف، وهي عائدةٌ إلى البيت، كي تتحدّث إلى جاراتها، ونلتقيها في المقبرة، يوم الأَحد، تزيّن بالزهور قبور أَمواتها، أو في السوق، يوم الخميس، أو عند باب المدرسة، ظهرًا، تنتظر خروج ابنها كي تغمره بالقبلات وتستصحبه إلى المنزل.

نراها مهتمّةً بقضايانا الاجتماعيّة، وبالعلل التي تهزّ جماعاتنا؛ حريصةً على مشاركتنا تجاربنا الروحيّة المثيرة؛ فخورةً بجمال مدينتنا، وبتاريخنا، وبالانتماء إلى أُصولنا، أُصول فلاّحين، وعمّالٍ، ومهنيّين، ومهاجرين لا يقوون على الانعتاق من سحر الوطن. نراها شريكة أَحلامنا، واحتفالاتنا، وقسوة حياتنا اليوميّة، مستعدّةً، دائمًا، لمساعدتنا، تبثّ فينا رجاءَها، وتذكّرنا بالحاجة الحارقة إلى الله. تقتسم معنا الأَغاني والدموع، دموع

الفراق واللقاء، مثل جارةٍ من جارات الماضي، ومثل ساكنةٍ في البناء الذي نقطن فيه، والذي تشيع فيه النور، والفرح، والمحبّة.

فيا مريم القدّيسة، يا امرأة أيّامنا، تعالي وأقيمي في ما بيننا. كنتِ قد أعلنتِ أنّ جميع الأجيال ستطوّبكِ. ومن هذه الأجيال جيلنا الذي يريد تكريمك، ليس فقط من أجل العظائم التي سبق لله أن حقّقها فيك، بل من أجل المعجزات التي ما انفكّ يُحدِثها، من خلالكِ، اليوم.

فدعينا نشعر أنّك قريبةٌ من مشاكلنا، تعيشينها، وتستبينين تفاصيلها المأساويّة، وتستقرين تطوّراتها الدقيقة، وتلمسين كلّ آلامها.

يا مريم القدّيسة، يا امرأة أيّامنا، احمينا من مخاطر الظنّ بأنّ التجارب الروحيّة التي خُضتِها، لألفي سنةٍ خلتْ، لم تعد تصلح لنا، نحن أبناء حضارةٍ، بعد ادّعائها تجاوز الحداثة، والحقبة الصناعيّة، وادّعائها تخطّي أمورٍ كثيرةٍ أُخرى، باتت تدّعي أنّها تخطّت، أيضًا، المسيحيّة.

أفهمينا أنّ التواضع، والبساطة، والطهر، هي ثمار كلّ مواسم التاريخ، وأنّ تغيّر العهود لم يغيّر التركيب الكيميائيّ في كثيرٍ من القيَم، مثل المجّانيّة، والطاعة، والثقة، والرقّة، والصفح. فهذه القِيَم صامدةٌ، ولن تندثر أبدًا. فعودي، إذن، إلى ما بيننا، وقدّمي لنا الصيغة المجدّدة لهذه الفضائل الكبرى، التي جعلتكِ عظيمةً في عيني الله.

ويا مريم القدّيسة، يا امرأة أيّامنا، عندما وَهَبَنا إيّاكِ يسوع أُمًّا، لم يجعلكِ، فقط، مواطنةً، بل أيضًا معاصرةً للجميع، وسجينة فسحة الزمن والمدى عينها التي يحيون فيها. ولذلك ما من حقبةٍ غريبةٌ عنكِ، ولا من مكانٍ.

فقفي إلى جانبنا، وأصغي إلينا، ونحن نبلّغك الهواجس التي ترهق حياتنا اليوميّة : الراتب الذي لا يكفي، والإرهاق الناجم عن التعب، وعدم الاطمئنان إلى المستقبل، والخوف من الفشل، والوحدة الداخليّة،

واهتراء العلاقات، وتقلّب مشاعر المودّة، وتربية الأبناء الصعبة، وتعذّر التواصل مع أعزّ الأشخاص، ودُوار التجارب، وكآبة الكبوات، ووقر الخطيئة...

دعينا نشعر بحضورك المطمئن، يا معاصرة جميع البشر الرقيقة. وكلّما جرى تفقُّدُ للحضور، فليُذكر اسمك، ولتجيبي: «حاضر!»، مثل رفيقة مدرسةٍ قديمةٍ.

٣٠ – مريم، امرأة الساعة الأَخيرة

يبدو أَنّنا لا نستطيع أَن نسأل العذراء شيئًا خيرًا من أَن «تصلّي من أَجلنا، نحن الخطأة». وفي كلّ تلاوة مسبحةٍ، نعيد، بعد ذلك، خمسين مرّةً، هذا التوسّل الوجيع: «الآن، وفي ساعة موتنا»، ولكأَنّه زبدة توسّلاتنا.

ولا بدعَ في ذلك، فمريم خبيرةٌ بتلك **الساعة**، لأَنّها كانت حاضرةً، في **ساعة** ابنها. وقد شاركت، بكلّ جوارحها، بمغامرة الموت والتمجيد التي اتّجه صوبها كلّ تاريخ الخلاص. في تلك **الساعة**، أَوكل إِليها يسوع جميع إِخوته، ممثَّلين في يوحنّا، كي تتّخذهم لها أَبناءً. ومنذ تلك اللحظة أَضحت حارسة **ساعتنا** الأَخيرة، وحاضرةً في تلك اللحظة التي يتحدّد فيها مصيرنا الأَبديّ.

وفضلاً عن ذلك، إِنّ **ساعة موتنا** هي عبورٌ صعبٌ، عبورٌ مخيفٌ، بسبب ما ينطوي عليه من مجهولٍ. إِنّه انتقالٌ مرعبٌ، لأَنّه الوحيد الذي لا حيلةَ لنا في تحديد زمنه، ومكانه، وظروفه.

فأَنتِ، الخبيرة بتلك الساعة، آزرينا كي يستقبلها كلٌّ منّا، عندما تأزف، في مثل سجوّ القدّيس فرنسيس: «فلتُمجَّد، يا ربّ، من أَجل أَخينا، الموت الجسديّ، الذي لا مهرب لأَيّ إِنسانٍ منه».

فيا مريم القدّيسة، يا امرأة الساعة الأَخيرة، عندما سيُخيّم مساؤنا العظيم، وتنطفئ الشمس في حُجُب الغَسَق، قفي إِلى جانبنا، كي نقوى على مواجهة الليل. لقد خُضتِ هذه التجربة مع يسوع، عندما انحجبت الشمس، ساعة موته، وغَشَت الأَرضَ ظلمةٌ كثيفةٌ. فكرّري هذه التجربة معنا، قفي تحت صليبنا، وراقبينا في ساعة الظلمات. حرّرينا من خوف

الهوّة. وحتّى عندما يلفّنا الكسوف بعتمته، فلنرتعش رجاءً، ولتتسلّل إلى نفوسنا عذوبة النوم.

وفي كلّ حالٍ، فليجدنا الموت «أَحياءً»!

إن مددتِ، أَنتِ، لنا يد العون، فلن يخيفنا الموت. بل سنحيا لحظة حياتنا الأَخيرة، وكأنّها ولوج كاتدرائيّةٍ مشعّةٍ بالأَنوار، في أَعقاب حجٍّ طويلٍ على ضوء شموعٍ، سنطفئها لدى بلوغنا فناء الكاتدرائيّة، ونضعها جانبًا، إذ لن نعود في حاجةٍ إلى نور الإيمان الذي أَضاء دربنا، لأَنّ جمالات الهيكل ستغمر أَحداقنا بالسعادة. ساعدينا، نرجوكِ، كي نحيا موتنا على هذا النحو.

ويا مريم القدّيسة، يا امرأة الساعة الأَخيرة، يخبرنا الإنجيل أَنّ يسوع، لمّا أَسلم روحه على الصليب، أَمال رأسه. وقد رأى كثيرون من الفنّانين، بحدْسهم الثاقب، أَنّه أَلقى رأسه على رأسك، في مثل موقف الثقة الذي كان يحدوه، صغيرًا، إذ كان يستسلم للكرى. فربّما كنت، تحت الصليب، تعتلين حجرًا، لكي تكوني وسادة موته.

فنتوسّل إليكِ : عندما ستحين ساعة استسلامنا للآب، ولن يعود بوسع أَحد الحاضرين الاستجابة لنداءاتنا، وعندما سنهوي إلى وحدةٍ لن يقوى أَقرب أَحبّائنا إلينا على ردم فراغها، قدّمي لنا رأسكِ، ليكون وسادتنا الأَخيرة.

وحينئذٍ، في لحظة حياتنا القصوى هذه، ستوقظ حرارة وجهك، من أَعماق وعينا الموصدة، ذكرى لحظةٍ أُخرى، اللحظة الأُولى التي تلت ولادتنا، عندما اختبرنا حرارة وجهٍ آخر يشبه وجهك إلى حدٍّ بعيدٍ. وربّما، في تلك اللحظات، فقط، سندرك، رغم الأَنوار الخافتة التي ما برحت تنبعث من فكرنا الآخذ في الانطفاء، أَنّ آلام النزاع ليست سوى آلام ولادةٍ وشيكةٍ.

ويا مريم القدّيسة؛ يا امرأة الساعة الأَخيرة، أَعدّينا للرحلة الكبرى. وساعدينا على المضيّ، بلا وَجَلٍ. قومي، عنّا، بمعاملات جواز السفر، وامهريه، أَنتِ، بتأشيرتكِ، فلا يعود عبور الحدود يوحي لنا بأَيّة خشيةٍ. وساعدينا على تسديد حساباتنا الأَخيرة مع العدل الإِلهيّ، بواسطة ندمنا والتماسنا الغفران. واظفري لنا، أَنتِ، بمكاسب الغفران الذي تغدقه رحمته، بكرمٍ ملكيٍّ. وبالإِجمال، فلتكن كلّ أَوراقنا مكتملةً، بحيث، عندما ننتهي إِلى باب الفردوس، ونقرعه، يُفتَح لنا على مصراعَيْه.

٣١ – مريم القدّيسة، رفيقة السفر

يا مريم القدّيسة، أَيّتها الأمّ الرقيقة والقويّة،
يا رفيقة سفرنا على دروب الحياة،
إِنّنا، كلّما تأَمّلنا العظائم التي صنعها العليّ فيكِ،
اعترانا ندمٌ حادٌّ على بطئنا،
وشعرنا بالحاجة إِلى تكبير خطواتنا لكي نستطيع السير إِلى جانبك.
فلبّي رغبتنا في الإِمساك بيدكِ،
وسرّعي وتيرة سيرنا التعِب.
نحن، أَيضًا، وقد أَصبحنا حجّاج إِيمانٍ،
لا ننشد، فقط، وجه الربّ،
بل، إِذ نتأمّل فيكِ إِيقونة العناية البشريّة
بمن يعانون الحاجة،
نوافي «المدينة» بسرعةٍ،
آتينها بثمار الفرح عينها،
التي جئتِ بها، ذات يومٍ، إِلى إِليصابات البعيدة.

٣٢ – يا مريم القدّيسة عذراء الصبح

هبينا أَن نتوسّم، في غمام الفجر،
آمال النهار الوليد.
وأَلهمينا كلمات جرأةٍ، فلا يرتجف صوتنا،
عندما نجسر على إِعلان أَنّ أَزمنةً فُضلى قادمةٌ،
رغم كلّ الشرور والخطايا التي تصيب العالم بالشيخوخة.
ولا تسمحي
بأَن تتغلّب، على شفاهنا، أَنّة الشكوى على صيحة الدهشة،
وأَن يسيطر القنوط على الجهد،
وأَن تسحق الريبةُ الاندفاعَ،
وأَن يحول ثقل الماضي دون إِيماننا بالمستقبل.
ساعدينا على المراهنة، بمزيدٍ من الجسارة، على الشباب،
واحمينا من تجربة مداهنتهم، بحِيَل الأَقوال العقيمة.
ولنعِ أَنّ خيارات الصدق والمنطق هي، وحدَها، كفيلةٌ بافتتانهم.
ضاعفي طاقاتنا، لكي نحسن توظيفها
في الصفحة الوحيدة التي مابرحت مُجديةً في سوق الحضارة:
وقاية الأَجيال الجديدة
من الشرور الرهيبة التي تقطع، اليوم، أَنفاس الأَرض.

وليكن لأَصواتنا إِيقاع هلّيلويا الفصح.
أَسيلي الأَحلام في رمال واقعنا،
واجعلينا كلِفين بالرؤى الجسورة،
التي من خلال جراحها ينسكب الرجاء على الأَرض.
ساعدينا على إِدراك أَنّ إِظهار البراعم التي تنبت على الأَغصان،
خيرٌ من البكاء على الأَوراق المتساقطة.
وهبينا يقين من بات يرى المشرق
ملتهبًا بأُوليات أَشعَّة الشمس.

٣٣ – ويا مريم القدّيسة، عذراء الظهيرة

هبينا نشوة النور،
ولنتبيّن، بوضوحٍ وعمقٍ، انطفاء مصابيحنا،
وانهيار إِيديولوجيّات القوّة،
وامتداد ظلال المغيب على دروب الأَرض الضيّقة،
عسى أَن ينشب بنا توقٌ إِلى شمس الظهيرة.
انتشلينا من براثن كآبة الذهن المضطرب،
وأَلهمينا تواضع البحث.
أَطفئي لظى عطشنا إِلى النعمة، في راحة يدكِ،
وأَرجعينا إِلى الإِيمان الذي كانت أُمٌّ أُخرى،
فقيرةٌ وطيّبةٌ مثلك، قد بثّته في حنايا طفولتنا،
إِيمانٍ قايضناه، ذات يومٍ، بطبق عدسٍ زريٍّ.
وأَنتِ، يا متسوّلة الروح،
املأي جرّتنا زيتًا، نحرقه أَمام اللّٰه،
بعد أَن طالما أَحرقناه أَمام أَصنام الصحراء.
وهبينا قدرة تسليم ذواتنا للربّ.
حُدّي من غلواء كبريائنا،
وحتّى عندما يرتدي إِيمانيا نبرة التنديد النبويّ،

حولي دون جعلنا صَلِفين، معتدّين.

بل فليُضفِ الإيمان علينا فرحَ التسامح والتفاهم.

وأَنقذينا من مأساة تغرّب إيماننا عن خياراتنا الواقعيّة، في كلّ لحظةٍ، خياراتنا العامّة، وخياراتنا الخاصّة،

ومن خطر ألاّ يتحوّل هذا الإيمان إلى لحمٍ ودمٍ،

على مذبح حياة كلّ يومٍ.

٣٤ – ويا مريم القدّيسة عذراء المساء،

يا أُمّ الساعة التي نؤوب فيها إلى البيت،
ونتذوّق عذوبة الشعور بأَنّ ثمّة من يرحّب بنا،
ونحيا بهجةً لا توصف بجلوسنا إِلى مائدةٍ، مع آخرين.
هبينا نعمة التواصل.
وهبيها لكنيستنا،
التي تبدو أَنّها، هي، أَيضًا، ليست بمنأًى عن غوايات التشرذم،
والانكفاء على انعزاليّتها وفرديّتها.
وإِنّنا نسأل هذه النعمة، أَيضًا، من أَجل أُسَرنا،
لكي يجعل منها الحوار، والحبّ المصلوب،
والتمتّع الساجي بعلاقات المودَّة العائليّة،
المكان الأَمثل للنموّ المسيحيّ والمدنيّ.
إِنّنا نلتمس نعمة التواصل من أَجلنا جميعًا،
لكي ننأى عمّا توحي به الأَنانيّة والانعزاليّة من نبذٍ للآخرين،
فنكون، دائمًا، إِلى جانب الحياة، حيثما تولد، وتنمو، وتموت.
ونسأل هذه النعمة، من أَجل العالم أَجمع،
لكي لا يُعاش تضامن الشعوب،
مثل أَيّ التزامٍ أَخلاقيٍّ،

بل لكي يُنظَر إليه على أنّه الواجب الأخلاقيّ الوحيد،
الذي يقوم عليه تعايُش البشر،
بحيث يضحي بمكنة الفقراء الجلوسُ على المائدة المشتركة،
بملء الكرامة الإنسانيّة،
وبحيث يصبح السلام غاية كلّ التزاماتنا اليوميّة.

٣٥ – ويا مريم القدّيسة، عذراء الليل

نتوسّل إِليكِ أَن تكوني إِلى جانبنا،
عندما يداهمنا الأَلم،
وعندما تحلّ المحنة، وتهبّ ريح اليأس،
وتخيّم فوق وجودنا سماء الهموم الدكناء،
وصقيع خيبات الأَمل،
وجناح الموت الصارم.
حرّرينا من رعدة الظلمات.
وفي ساعة جلجلتنا، ابسطي علينا معطفكِ،
أَنت التي خبرتْ كسوف الشمس،
لعلّنا، إِذ يلفّنا نَفَسكِ،
نقوى على احتمال انتظار الحرّيّة الطويل.
بلمسات أُمٍّ رقيقةٍ، خفّفي أَوجاع الأَمراض،
وبحضور أَصدقاء كتومين، املأي عزلة الوحيد المريرة...
احمي، من كلّ شرٍّ، أَحبابنا العاملين في ديارٍ قصيّةٍ.
وبأَلَق عينَيْكِ المترع حبًّا،
شدّدي عزيمة الذين فقدوا الثقة في الحياة.
أَعيدي، على مسامعنا، نشيد تسبيحكِ،

وبشّري جميع مقهوري الأَرض
بفيض العدل.
لا تَذَرينا وحيدين، في الليل، نجترّ مخاوفنا.
بل قفي إِلى جانبنا، في لحظات العتمة،
واهمسي في آذاننا أَنّكِ، أَنتِ، أَيضًا،
يا عذراء عشيّة الميلاد، تنتظرين النور.
وحينئذٍ ستجفّ، عن وجوهنا، ينابيع دموعنا،
وسنسهر، معكِ، حتّى الفجر.
آمين!

الفهرس

	الصفحة
تمهيد	٥
١ – مريم، امرأة أيّامنا	٧
٢ – مريم امرأةٌ صريحةٌ وطبيعيّةٌ	٩
٣ – مريم امرأَة الانتظار	١٠
٤ – مريم، المرأة العاشقة	١١
٥ – مريم، المرأَة الحامل	١٢
٦ – مريم، المرأة المضياف	١٣
٧ – مريم، امرأة الخطوة الأولى	١٥
٨ – مريم المرأَة الرسول	١٧
٩ – المرأَة المتحرّرة من قيود التقاليد	١٩
١٠ – مريم امرأة النظرة الأولى	٢١
١١ – مريم، امرأَة الخبز	٢٣

١٢ – مريم امرأة الحدود	٢٦
١٣ – مريم، المرأة الشجاعة	٢٨
١٤ – مريم، المرأة المرتحلة	٣٠
١٥ – مريم، امرأة الراحة	٣٣
١٦ – مريم، امرأة الخمرة الجديدة	٣٦
١٧ – مريم، امرأة الصمت	٣٩
١٨ – مريم، المرأة المطيعة	٤٢
١٩ – مريم، امرأة الخدمة	٤٤
٢٠ – مريم، المرأة الحقّة	٤٦
٢١ – مريم، امرأةٌ من الشعب	٤٨
٢٢ – مريم، امرأة المشاعر العميقة	٥١
٢٣ – مريم، امرأة السبت المقدّس	٥٣
٢٤ – مريم، امرأة اليوم الثالث	٥٦
٢٥ – مريم، امرأة المنادمة	٥٨
٢٦ – مريم، امرأة العلّيّة	٦٠
٢٧ – مريم، المرأة الكلّيّة البهاء	٦٣

٢٨ – مريم، المرأة الأَنيقة ٦٦

٢٩ – مريم، امرأةٌ معاصرةٌ لأَيّامنا ٦٨

٣٠ – مريم، امرأة الساعة الأَخيرة ٧١

٣١ – مريم القدّيسة، رفيقة السفر ٣١

٣٢ – يا مريم القدّيسة عذراء الصبح ٣٢

٣٣ – ويا مريم القدّيسة، عذراء الظهيرة ٣٣

٣٤ – ويا مريم القدّيسة عذراء المساء، ٧٩

٣٥ – ويا مريم القدّيسة، عذراء الليل ٨١

ظهر من سلسلة «صفحات روحيّة»

١ – م. يوسف الكلاّس:
٢ – ماري – تريز دو ماليسي:
٣ – أ. إميل الحاجّ البولسيّ:
٤ – أ. إميل الحاجّ البولسيّ:
٥ – أ. إميل الحاجّ البولسيّ:
٦ – غَرِديّ الدومنيكيّ/ أ. باسيليوس بريدي:
٧ – أ. جوزيف شريفرز/ جورج الريّس:
٨ – أ. باسيليوس بريدي البولسيّ:
٩ – م. كيرلّس بسترس:
١٠ – هنري كافاريل/ جورج عازار:
١١ – أ. بيتر فان بريمن/ أ. وفيق نصري اليسوعيّ:
١٢ – أندريه لوفيه/ أ. الياس زحلاوي:
١٣ – عادل تيودور خوري
١٤ – رينهارد لتمان/ عادل تيودور خوري:
١٥ – الخوري بولس الفغالي:
١٦ – كرت رومل/ حنّا شوملي:
١٧ – م. يوسف الكلاّس:
١٨ – م. سليم الصائغ:
١٩ – م. سليم الصائغ:
٢٠ – هنري كافاريل/ أ. أنطوان نصر:
٢١ – م. سليم الصائغ:
٢٢ – م. سليم الصائغ:
٢٣ – الكردينال مارتيني/ أ. مارون اللحّام:
٢٤ – ترجمة المعهد الإكليريكيّ في بيت جالا:
٢٥ – ترجمة المعهد الإكليريكيّ في بيت جالا:
٢٦ – أديب مصلح:
٢٧ – الأب سهيل قاشا:
٢٨ – م. سليم الصائغ:
٢٩ – م. سليم الصائغ:
٣٠ – طوني هاشم:
٣١ – إيلوا لو كليرك/ الأب جرجس المارديني:
٣٢ – طوني هاشم:
٣٣ – المطران يوسف الكلاّس:
٣٤ – الخوري أنطوان الدويهي
٣٥ – جان غيتّون وجان جاك أنتييه/أديب مصلح

على دروب الإنجيل
صلاة على مدى ١٥ يومًا...
قصص تأمّليّة (١)
قصص تأمّليّة (٢)
قصص تأمّليّة (٣)
مقام الروح القدس في الحياة المسيحيّة
بذل الذات
عظات في التطويبات ومريم العذراء
تأمّلات في إنجيل ربّنا يسوع المسيح
الصلاة لقاء مع اللّه
كالخبز الذي كُسِر
هروبي الأخير مع يسوع المسيح
مع يسوع المسيح في لقاءاته
من حصاد المطالعة
إرفعوا الكِسَر
أبانا الذي في السماوات
من وحي الإنجيل
الصلاة بالروح والحقّ (١)
الصلاة بالروح والحقّ (٢)
«لا تخفْ أن تأخذ مريم زوجةً لك»
يسوع خبز الحياة (١)
يسوع خبز الحياة (٢)
اللّه يكفيني
القراءة الربّانيّة
مقالات في الدعوة الكهنوتيّة والرهبانيّة
أبانا...
كيف أعترف...؟
دردشات مع يسوع (١)
دردشات مع يسوع (٢)
اللصُّ التائب
الفقير الحكيم
قال نيتشه: «مات اللّه» قلتُ: «حقًّا! إنّما قام»
رُوحُكَ الصَّالح يَهديني
علّمتني الحياة
كتاب الحكمة، والفضائل المستعادة

أنجزت المطبعة البولسيّة
جونيه – لبنان
طبع هذا الكتاب
في شهر أيلول سنة ٢٠٠٧